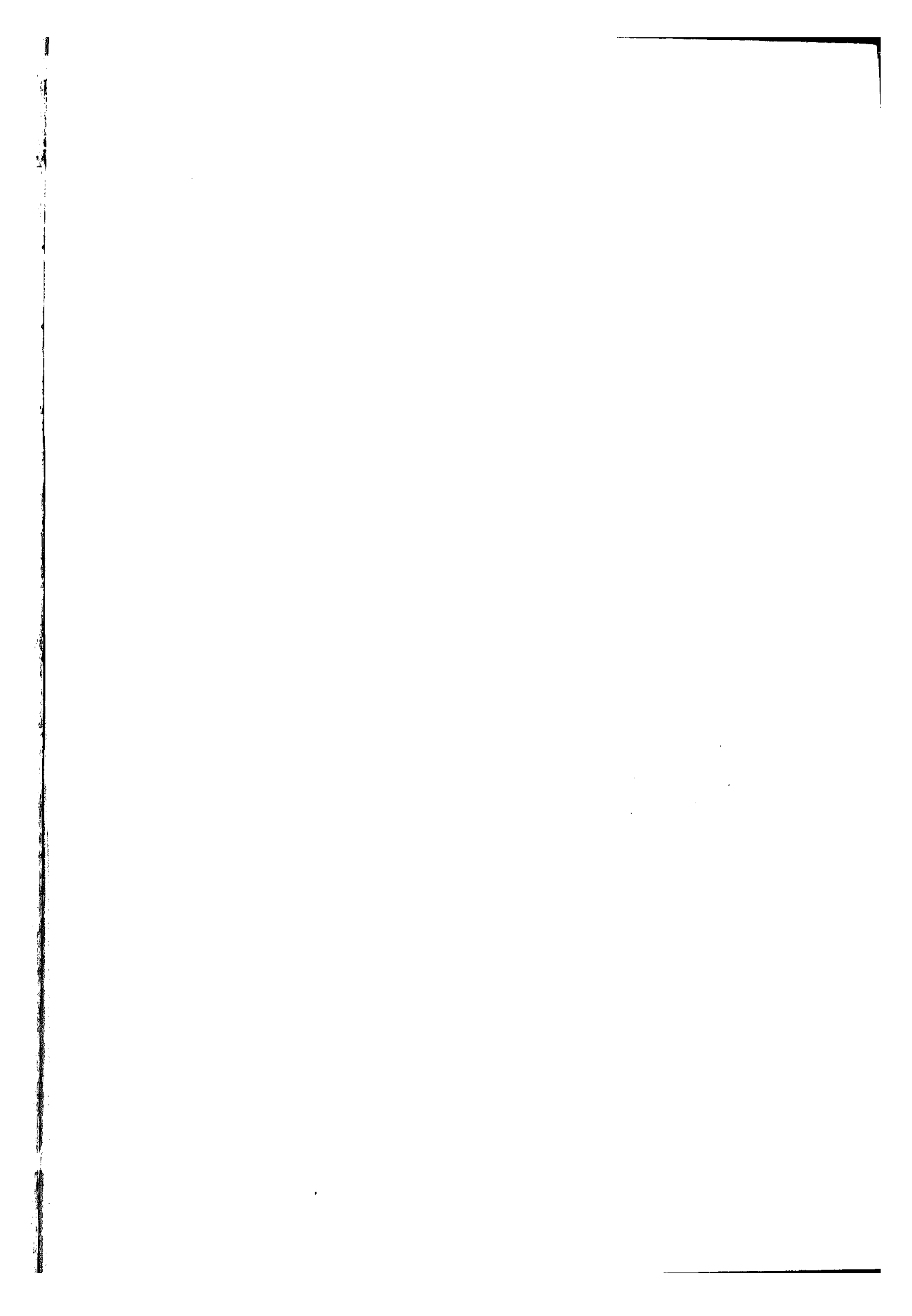
قلعة الأبطال

عبد الحميد جودة السحار



مطبوعات مكتبة مصر

قلعة الأبطال

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١

انساب الفلاحون والفلاحات فى الطريق الذى مهدته الأقدام بين الحقول الخضر ، مقطبى الجبين ، يلوح فى وجوههم الذابلة الأسى والذل . كانوا فى طريقهم إلى السوق ليبيعوا إلى المرابين ما بقى عندهم من حلى أو متاع . فقد أرسل إليهم الخديو إسماعيل جباة الضرائب وفى أيديهم السياط لينتزعوا منهم غاية ما يمكنهم أن ينتزعوه بالبطش والإرهاب ، وليمتصوا دماءهم قطرة قطرة ، ما دامت تلك القطرات تسكت حملة القراطيس الأجانب الذين ارتفعت أصواتهم يطلبون دفع قسط « الكوبون » الذى وافى أجله .

كان إسماعيل يبنى القصور ، ويقيم الحفلات للملوك والملكات ، ويدعو كبار الفنانين والفنانات ، ونثر المال ذات اليمين وذات الشمال ليبهر الغرب ببذخه وكرمه ، ويزهو لحظات فى خيلاء ، حتى إذا ما ابتلعت مباذلـه الأموال . واختفت فى جيوب من التف حوله من الأفاكين والساقطات ، وذابت ثروة البلاد ، نسى كبرياءه ، ومد يده يستجدى الدائنين ليشبع فى نفسه شهوة الإنفاق .

مد الطرق ، وأنشأ مشاريع كبيرة ، وأقام صناعات ضخمة . وأغرق البلاد فى الديون ، ولكن لم يكن هدفه الإصلاح ، فما كانت مشاريعه ترى النور حتى تهمل وتترك للوحوش والهوام ، فكل همه أن يعلن عن نفسه وإن جر ذلك البلاد إلى الخراب .

رهن إيرادات الجمارك والسكك الحديدية ، وأراضيه الخاصة ، فلما استنفد موارد الدولة لم يجد أمامه إلا الفلاح يرهقه طغيانا ، ويرغمه كرها على أن يمده بالأموال . إنه البقرة الحلوب ، فكان يفتن فى اغتصاب ثمرة جهوده بالقسوة والاستبداد ، ولا غرو فالاستبداد خلق فيه .

انطلق الرجال حاسرى الرءوس . لا يستر أجسامهم النحيلة الضاوية إلا قمصان مغبرة تنم عن رقة الحال . فما ترك لهم إسماعيل ما يقيهم قر البرد ولفح الهجير ، وسار النسوة فى ثيابهن السود الفضفاضة وقد عبثت بها يد الزمن فمزقتها وسلبت ألوانها ، وبعثت الشمس أشعتها الحامية فتفصد العرق من الأبدان وربا الحقد واشتد كرب الصدور .

سارت خديجة مطأطئة الرأس تقلب بين يديها خلخال أمها الفضى منقبضة النفس ، فهو أعز ما عندهم ، إذ كان أبوها الشيخ يحرص عليه فهو آخر ما يذكره بزوجه الراحلة ، وإن خديجة لتذكر أنه دفع لها نصيبها فيه أيام الرخاء ليحتفظ به ذكرى أيام سعادته وهنائه ، وإذا بإسماعيل يرغمه على أن يرسله إلى السوق. . ليوفى بعض ما وضع على عاتقه من ضرائب ، واتقاء لبدنه من سياط الطغاة الظالمين .

وبلغت السوق فتوقفت لحظة ، ثم رمت ببصرها تنظر فإذا بها تموج بالفلاحين والفلاحات الذين وفدوا إليها يعرضون ما عندهم من حلى أو ثياب ، وإذا بالمرابين اليونان والأروام والطليان يغدون ويروحون فى نشاط يشع الجشع من عيونهم ، يساومون فى رطانة خبيثة ، ويأكلون أموال المساكين الذين دفعهم ظلم سلطانهم إلى براثنهم فى لذة ونهم ، فبصقت خديجة على الأرض فى ضيق ، ثم اندفعت تموج مع المائجين .

طفقت تعرض الخلخال على هذا وذاك وتلف وتدور ، حتى إذا ما قنطت من أن تحصل على ثمن أعلى مما عرض فيه ، دفعت بالخلخال إلى الرجل الرومى وهى تقول فى غيظ :

— خذ لا بارك الله لك فيه ، وهات النقود .

ورنت إلى السماء وقالت فى حرارة وقد كادت الدموع تطفر من مآقيها :

— الله يخرب بيت من كان السبب .

وإذا بأصوات من حولها تنطلق منفسة عما فى الصدور :

— آمين ..

وانسلت خديجة من السوق ، وارتدت على أعقابها شاردة اللب تعبث بالنقود ، حتى إذا بلغت الدار المتواضعة دلفت إلى القاعة وتقدمت من أبيها الذى كان مطرقا فى عبوس ، ودفعت إليه بالنقود وهى تقول فى غضب :

— كل من فى السوق لصوص .

ثم التفتت خلفها ونظرت إلى السماء من خلال باب الدار وهتفت :

— الله يخرب بيته على أيدى الأروام ، يارب سلطهم عليه كما سلطهم علينا يأكلون لحمنا كالدود .

وقال الشيخ فى قنوط :

— والله لا أدرى ماذا نفعل إذا حلت مواعيد الضرائب الأخرى ، ليس عندنا ما ندفعه ، ولم نعد نملك ما نبيعه .

فقالت له خديجة تواسيه :

— ربنا موجود .

٢

خشعت الكائنات وراح كل شيء فى سبات ، حتى نجوم السمـاء هجعت ، وأسدل على الكون نقاب نسج من خيوط الظلام ، وران على القرية سكون عميق ما كان يعكره إلا نقيق الضفادع وصفير الجنادب ونباح كلب بعيد .

وانحسر النقاب فى الأفق الشرقى عن ضوء خافت جعل يفيض على كل ما حوله فيطفو على سواد الليل ، وصاحت الديكة ، وجلجل صوت المؤذن يدعو الناس إلى الصلاة ، فنهض الشيخ إبراهيم يتوضأ ، وذهبت خديجة فى عماية الصبح توقد المجمرة وتعد الطعام والقهوة .

وقضيت الصلاة فجلس الشيخ يقرأ بعض السور القصار ، ثم التفت إلى حفيده النائم إلى جواره ، ومد يده وجعل يهزه فى رفق ويهتف فى حنان :

ـــ حامد .. حامد .. قم ..

فنهض حامد من نومه يتمطى ويتثاءب ويفرك عينيه بظهر يده ، وصاح الشيخ :

ـــ خديجة ، أيقظى سعدية ..

وتحلقوا طاجنا به لبن رائب ، وجعلوا يسحبون الخبز من فوق المجمرة ويغمسونه فيه ، ثم تناول الشيخ قهوته ونهض يتأهب للانطلاق إلى عمله .

كانت الشمس تبعث أشعتها الأولى إلى القرية تتلمس طريقها فى جهد إلى

الكوات الضيقة فى الدور الهزيلة الذليلة المبنية بالطين ، وفتحت الأبواب فارتفع لها صريرامتزج بخوار الثيران وثغاء الأغنام ونهيق الحمير . ودلف الفلاحون إلى الطريق الضيق المتعرج تفوح منه روائح روث البهائم وعفن الماء الآسن فلم تنقبض عضلات وجوههم امتعاصا ، فقد ألفت أنوفهم ذلك العبير .

انطلق الشيخ إبراهيم وحفيده يتجاذبان أطراف الحديث ، كان الشيخ طويلا نحيلا فى الخامسة والستين . أسمر الوجه أبيض الشعر يحف شاربه ويطلق لحيته ، له عينان سوداوان ضيقتان غائرتان ولكن بصره حديد ، تمكن بعد كفاح مرير وجهاد طويل من أن يحتفظ بالفدانين اللذين ورثهما عن أبيه . وهو قانع بعيشه ، وكل ما يخشاه أن يرغمه جباة الضرائب على رهن أرضه . إنه يحس أنها قطعة منه ، وأبغض ما يبغضه أن يفقدها أو يتركها لقمة سائغة للمرابين الذين انطلقوا كالحيات فى الريف يمتصون دم أهله . إنه وإن كان قد عجز عن أن يزيد فيها ، فلا أقل من أن يورثها خديجة وحامد وسعدية كما ورثها عن أبيه .

كان يعمل فيها بنفسه يعاونه حامد ، وما كان بقادر على أن يستعمل أجيرا فهو لا يملك أجره ، وحتى إذا كان يملك ما يدفعه له فما كان ليعثر على من يشتغل عنده فالأغنياء يأخذون العمال قسرا ويرغمونهم على العمـل فى ضياعهم سخرة ، وما كان لأحد أن يجأر بالشكوى ، فذلك حق الأغنياء فى أمة كل من فيها عبيد .

وكان حامد فى السادسة عشرة ، متوسط القامة ، ضامر الجسم ، قتل أبوه فى حروب إسماعيل التى ألقى بالمصريين فى أتونها يصلون نارها ، وهو ينتقل بين قصوره ومسارحه وأحضان الغانيات ليبنى لنفسه مجدا ، ويشيد

إمبراطورية على أجداث ضحاياه يختال بها بين المختالين .

تركته أمه عند جده بعد موت أبيه وتزوجت ، فشب لا يعرف له أهلا إلا جده وعمته خديجة ، وابنة عمته اليتيمة سعدية التى شاطرته طفولته وأيامه ولياليه .

عكف الشيخ على أرضه يحرثها ، وجعل الفتى يمهدها ويحمل التراب على عاتقه ويشق القنوات ويغدو ويروح فى نشاط ، حتى إذا ما تقلص الظل وتربعت الشمس على عرش السماء ، جاءت سعدية تهش بعصاها على غنمها ، فلما بلغت شجرة التوت القريبة من الساقية استلقت تحتها تتفيأ ظلالها ، ولمحها حامد فهرع إليها ، وأقبل عليها يحادثها وقد أضاء وجهه بريق حلو ولد فى عينيه .

كانت سعدية فى الثامنة عشرة ، سمراء فاتنة ، ممتلئة الجسم نامية ، وكان حامد يحبها منذ كانا طفلين يديران الساقية ويركبان النورج ويهرولان إلى الترعة يستحمان فيها ، ولكنه يحس نحوها الآن حبا آخر جارفا يملأ أقطار نفسه ، حبا يختلف عن ذلك الحب الذى كان يفيض به قلبه فى أيام طفولته ، إنه يشعر برغبة فى أن يمتلكها ، أن تكون له وحده .

وأقبلت خديجة تحمل الطعام على رأسها ، وجاء الشيخ وجلس ، وتحت شجرة التوت تناولوا طعامهم ، فلما فرغوا منه تمدد الشيخ وأخرج كتابا طفق يقرأ فيه ، واضطجع حامد وجعل يرنو إلى سعدية منتشيا ، وأخذت خديجة تجيل بصرها بين الغنم وتشرد بذهنها تحلم ، فالأغنام ملك يمينها وفيها كل آمالها . وتصرمت ساعة نهضوا بعدها يستأنفون ما كانوا فيه .

مالت الشمس للغروب ودب الوهن فى الأجسام ، فهجر الفلاحون

حقولهم إلى حيث يريحون أجسامهم المكدودة . انطلق الشيخ إبراهيم إلى داره ، وسار حامد وسعدية خلف الغنم يتناجيان ، فلما عبرا الجسر وبلغا الترعة ألفيا الناس متجمهرين ، فأغذا السير واختلطا بالقوم ، وإذا بصائح يصيح :

ــ رأيت شبحا يجذب الرجل ويغوص به فى الماء .

وقال آخر وقد اتسعت عيناه :

ــ خطفته امرأة ، رأيتها بعينى هاتين .

وقال ثالث :

ــ إنها جنية شغفت بالرجل حبا ، فخرجت إليه عارية ناصعة البياض وقد تهدل شعرها الأصفر وخطفته ليعيش معها فى دنياها .

وتناثرت القصص المثيرة ، ولم يتحرك رجل واحد لينقذ الغريق ! .

واستأنف حامد وسعدية سيرهما ، وظلا صامتين برهة ، ثم قالت سعدية :

ــ أتصدق يا حامد أن جنية تخطف رجلا .

فقال كالحالم :

ــ والله لا أدرى ، ولكن لو صدق ذلك لكان شيئا لذيذا .

فقالت له فى فزع :

ــ ماذا تقول ؟ أجننت ؟!

فقال وقد رفت على فمه بسمة عذبة :

ــ ما ألذ أن يكون المرء محبوبا ، إننى أشتهى أن أذهب مع من تحبنى إلى أى مكان ، ولو إلى قاع البحر .

وصمتا ولفهما قلق لذيذ .

٣

تدلت المصابيح على واجهات الدور فبعثت أشعتها الواهية تبدد بعض ظلمات الطريق ، وراحت ظلال أعواد الحطب المكومة فوق السطح تتراقص كأشباح كلما عبث الهواء بالمصابيح ، وراح الصبيان يلعبون فى الحارة ويمرحون يرددون الأغنيات فى فرح ، لقد نسوا ما كانوا فيه من بؤس وضيق ، فالليلة من ليالى رمضان المباركة التى تتفتح لها النفوس .

وبلغوا دكان القرية ، فرأوا المصابيح الملونة متدلية وقد توهجت فيها شمعات فتألق الزجاج الأحمر والأخضر والأزرق والأصفر ، فهفت إليها قلوبهم ، واكفهرت وجوههم فقد تذكروا الحرمان الذى يعيشون فيه . ولكن سرعان ما تبددت مرارة النفوس واستأنفوا لهوهم ، وعاد إلى وجوههم القذرة إشراقها وابتساماتها .

وقضيت صلاة التراويح ، فغادر الشيخ إبراهيم مسجد القرية وسار صوب داره ، حتى إذا ما دنا منها مس أذنيه صوت أخاذ يردد بعض آى الذكر الحكيم ، فوقف الشيخ يصغى كالمسحور ، ودنا من الصوت فألفى غلاما يقرأ فى حرارة وتأثر وفهم ، فجعل يرنو إليه فى إعجاب ، وفطن الفتى إلى وقفته فغض من بصره حياء ، فقال له الشيخ مشجعا :

ـــ ما شاء الله ! ما اسمك يا فتى ؟ .

ـــ يوسف ، ابن جاركم الشيخ سليمان .

ـــ وأين تعلمت هذا الترتيل ؟ .

ـــ فى كتاب القرية .

ـــ تعلموا كلهم تلاوة القرآن فى كتاب القرية ولكنهم لا يرتلونه مثلك ، إنهم يذكروننى بالمقرئين الذين يقرءون على المقابر .

فابتسم يوسف وقال مزهوا :

ـــ إننى لست مثلهم ، إننى أطالع كثيرا لأحقق أمنيتى .

ـــ وماذا تتمنى ؟

ـــ أن أجاور فى الأزهر .

فقال الشيخ بامتعاض :

ـــ يا خسارة .

فقال يوسف فى دهش :

ـــ لماذا ؟ .

ـــ هذا حديث طويل .

فقال الفتى فى حماسة .

ـــ أحب أن أسمعه .

ـــ تعال معى إن أردت .

ودلف الشيخ إلى داره والفتى فى أثره ، وتربع الشيخ على المصطبة وجلس يوسف يرنو إليه ، قال الشيخ :

ـــ كنت فتى فى مثل سنك :

ثم ابتسم وقال :

ـــ كان ذلك من نصف قرن ، فقد صرت أحسب الزمن بأنصاف القرون ، تمنيت يومها مثلك أن أجاور فى الأزهر ، فشددت الرحال إلى

القاهرة ، وذهبت إلى حلقات الشيوخ وكلى رغبة فى تلقى العلوم ، راح الشيوخ يلقون ما يعرفون وما لا يعرفون ، حاولت أن أفهم ولكننى لم أكن أفقه شيئا مما يقولون ، هذا يشرح الكفراوى على الأجرومية ، وذلك يشرح الزرقانى على العزية ، وثالث يسهب فى شرح الشيخ خالد على الأجرومية ، فأحسست رأسى يدور ، وأعمدة الأزهر تتراقص ، وخيل إلى أن الشيوخ يتحدثون بلغة أخرى غير اللغة العربية . كنت أفهم القرآن إذا سمعته وأتأثر به ، ولكننى لم أكن أفهم ما يقولون . وجاهدت نفسى وكابدت هذا العناء سنة ، فررت بعدها بروحى وجئت إلى هنا أنفق السنين فى تنظيف عقلى من تلك الأدران التى علقت به .

وفطن الشيخ إلى نظرات الشك التى يطالعه بها يوسف ، فقال له :

ــ لماذا تخفى عنى ما يدور فى نفسك ؟ إنك تظن أننى كنت لا أصلح أن أجاور فى الأزهر .

وغض يوسف من بصره ، خجل من أن الشيخ اطلع على سريرته ، وقال له الشيخ متلطفا :

ــ لماذا تطرق يا يوسف ؟ من حقك أن يدور مثل هذا الظن فى نفسك ، ولكننى أقول لك إننى نفرت من ذلك الهراء الذى يحشو به الشيوخ الجامدون عقول الأزهريين ، فقد عكفت على الكتب وحدى ، وقرأت ما كتبه المتقدمون ففهمته وعقلته ، وزادت الأيام فى تجاربى فتيقنت من أن العامة قد ابتلوا بهؤلاء الشيوخ المتزمتين الذين ملأوا رءوسهم بالبدع والخرافات .

وصمت الشيخ قليلا ثم قال :

ــ وماذا تقرأ يا يوسف ؟

— حكايات الصالحين .

— ومن تحب منهم ؟

— ابن الفارض ، والجنيد ، ورابعة العدوية .

فأشرق وجه الشيخ وقال :

— تحب التصوف ؟! هذا جميل ، ولكن قل لى : ماذا تحفظ من كتبهم ؟

— بعض الأوراد و ..

— هذه الضلالات والبدع المتغلغلة فى كتب الصوفية .. لا تقرأ يا يوسف غير القرآن للذكر والتسبيح ، إن كتب التصوف زاخرة بالشعائر المخالفة للسنة والدين . سأعطيك كتابا لابن القيم حرر علم التصوف ونقاه من دسائس الدساسين .

ونهض الشيخ وغاب قليلا ثم عاد يحمل كتابا دفع به إلى يوسف ، فتناوله وراح يقرأ فى شغف : مدار السالكين للإمام الشهير ابن القيم ، شرح فيه كتاب : منازل السائرين لشيخ الإسلام أبى إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصارى المتوفى سنة ٤٨٠ هجرية .

ودخل حامد وسعدية ، فأخذ يوسف ينظر إليها ، وفطن حامد إلى نظراته فأحس غيرة وتدفق الدم حارا فى عروقه ورماه بنظرة شزراء ، ولكن يوسف لم يحفل بها وظل يتطلع إلى سعدية حتى غابت عن عينيه .

ونهض مستأذنا ، وما كاد ينصرف حتى قال حامد لجده فى حدة :

— من هذا ؟

— هذا يوسف ابن الشيخ سليمان ، إنه يقرأ القرآن ويهتم بكتب التصوف .. و ..

فقال حامد فى بلاهة :

— وما له وللصوف ؟! .

— ماذا أقول لك يا حامد ؟ لن تفهم مما أقول شيئا ، ولو لم تفر من الكتاب وأنت صغير لما أعياك أن تفقه قولى .

فقال حامد فى غيظ :

— أيفهم هو ما تقول ؟

— يخيل إلى يا حامد أنه ذكى ولن يعييه أن يفهم ما أقول .

فاستشعر حامد حقده يتحرك ، وأراد أن يهون من شأن ذلك الفتى الذى تفتح له قلب جده ، فقال :

— لن يزيد فى يوم من الأيام على أن يكون فلاحا .

فطن الشيخ إلى أن حفيده يعرض به ، ولكنه لم يغضب بل قال :

— إنه يستطيع أن يكون أى شىء ، لولا تلك الفكرة المجنونة المستولية عليه ، فكرة أن يجاور فى الأزهر .

فقال حامد فى انفعال :

— ما فكر فى الأزهر إلا ليفر من الجهادية .

وانصرف وهو يهرول فى سيره ، وجده يتبعه بنظره وقد ولدت على شفتيه بسمة .

٤

هرعت سعدية إلى خديجة ، وقالت لها وهى تقفز فى خفة وقد أشرق وجهها بابتسامة دعابة وعبث :

ــ مبارك يا خالة .

فالتفتت إليها خالتها باهتمام وقالت :

ــ ماذا جرى ؟

فقالت سعدية وهى تغالب ضحكاتها :

ــ خطبك الآن علوان .

فقطع الشيخ إبراهيم قراءته ، ونحى الكتاب عنه وقال فى حدة :

ــ خطبها ممن ؟!

فقالت سعدية فى تخابث :

ــ خطبها منى أنا ؟ .

وأرهفت خديجة أذنيها لتسمع ذلك الحديث العذب الذى يدغدغ حواسها ، فحديث الزواج أشهى الأحاديث إلى قلبها ، إنها تزوجت ثلاث مرات ، وقد أصبحت فى الخامسة والأربعين ، ومع ذلك تعيش على أمل واحد هو أن تتزوج ، وقطب الشيخ جبينه وقال :

ــ وكيف حدث ذلك ؟!

فراحت سعديه تقص قصتها ، قالت :

ـــ كنت عائدة إلى الدار أسير خلف الغنم ، فإذا بعلوان يدنو منى ويسألنى .. « غنم من هذه ؟ » فقلت له : « غنم خالتى خديجة » . فقال لى ، « أليس لجدك فيها شىء ؟ » قلت له : « لا » . فقال وهو يبتسم : « جميل » .

وصمتت سعدية ، وقال جدها يستحثها على متابعة حديثها :

ـــ ثم ماذا حدث ؟ .

ـــ لا شىء .

فقال الشيخ فى دهش :

ـــ لا شىء ؟ ومن أين عرفت أنه يخطبها ما دام لم يقل لك ذلك .

فقالت سعدية فى بساطة :

ـــ وهل قال بدوى غير ذلك عندما خطب خالتى فى السنة الماضية ؟ أنسيت أنه جاء إلى وقال لى : « بقرة من هذه ؟ » فقلت له : « بقرة خالتى خديجة » . فقال لى : « لها وحدها » ؟ فقلت له : « نعم لها وحدها » . وما كدت أدخل البقرة الحظيرة حتى جاء بدوى يدق بابنا يطلب الزواج ؟ .

وتذكر الشيخ ذلك ، إنهم يتزوجونها كلما ملكت شيئا ، حتى إذا ما بددوه هجروها ، فقال لخديجة :

ـــ أتتزوجينه يا خديجة إذا جاء يطلبك ؟ .

فقالت وهى تتظاهر بالخجل :

ـــ وهل لنا غير بيوت أزواجنا ؟

فقال الشيخ فى قسوة :

ـــ إنه لا يريدك لنفسك ، ولكنه يريدك حتى يستولى على غنمك .

فقالت فى بساطة :

ـــ ولو ، وهل يتزوج الرجل المرأة إلا لجمالها أو لمالها ؟

فقال الشيخ إبراهيم فى حيرة :

ـــ والله لا أدرى ما الذى ينقصك !

فقالت فى إيمان وقد برقت عيناها ببريق السعادة :

ـــ ظل رجل خير من ظل شجرة .

ـــ هذا إذا دام ظل الرجل .

فقالت له تعارضه :

ـــ ومتى دام ظل الشجرة ؟! .

فقال الشيخ مهزوما :

ـــ لقد أعذر من أنذر ، وما جاء إلا ليستولى على مالك .

فقالت تواسى نفسها :

ـــ خير لى أن يأخذ زوجى ما أملك وأنا راضية ، من أن يأخذه الحاكم منى عنوة بعد أن يجلد ظهرى .

وأفحم الشيخ فسكت ، وسمع طرقا على الباب فقال :

ـــ افتحى يا سعدية ، هذا حامد قد جاء .

فأسرعت إلى الباب ، وغابت قليلا ثم عادت تقول وهى ترنو إلى خالتها فى خبث :

ـــ علوان قد جاء ، وهو يطلب مقابلتك يا جدى .

وتحرك الشيخ فى بطء وهو يغمغم :

ـــ أمرى لله .

وتدفقت الدماء الحارة إلى وجه خديجة فتورد ، واقتربت سعدية منها وقالت :

ـــ مبارك يا خالة .

فرفت على شفتى خديجة ابتسامة عريضة ، وتمتمت فى سعادة :

ـــ ليت لى مال قارون أنفقه على الأزواج .

٥

دق الباب فى رفق ، ومرت لحظات وهو يحس قلقا ، فقد تصرم النهار ووفد الليل وهو يخشى أن يكون متطفلا بهذه الزيارة على الأسرة المكدودة التى تنفق نهارها فى كد وتعب ، وفتح الباب وظهرت سعدية بقامتها الممتلئة ، ووجهها الأسمر الفاتن ، وقد تدلت ضفيرتاها على صدرها ، فلما وقعت عيناها على يوسف أشرق وجهها بابتسامة ترحيب وإن لم تنبس بكلمة ، فأحس دمه يتدفق حارا إلى وجهه ، وقال فى صوت خافت :

ـــ الشيخ إبراهيم موجود ؟

فقالت سعدية وهى تفسح له الطريق :

ـــ تفضل .

ودلف من الباب ، وسار فى دهليز قصير ، ثم جلس على المصطبة وهو يرقب بطرف عينه سعدية التى غابت فى الظلام ، ومرت لحظات قصيرة وفد بعدها الشيخ وهو يحمل فى يده مصباحا ، فلما وقعت عيناه على الفتى قال فى ترحيب :

ــ أهلا وسهلا .

وجلسا يتسامران ، فدفع يوسف بالكتاب إلى الشيخ وهو يقول :

ــ أشكر لك هذه الساعات التى عشتها وأنا أقرأ هذا الكتاب ، كانت متعة للنفس .

وصمت يوسف قليلا ثم قال كالحالم :

ــ كلما قرأت كتابا فى التصوف أحسست رغبة فى أن أعتزل الناس وأن أعيش وحدى أجاهد نفسى ، وألا أتكلم مع أحد إلا إذا دعتنى الضرورة إلى الكلام ، فإذا هفت نفسى إلى الناس ذهبت إلى حلقات الذكر أهيم بالسماع والوجد والرقص .

فقال الشيخ فى رقة :

ــ ليس هذا من الإسلام فى شىء ، فليس فى الإسلام غلو فى ترك الدنيا وهى قوام مصالح الخلق ، ولا الإغراق بتعذيب النفس بالجوع والعرى والفقر الاختيارى ، ولا الهيام والرقص .

فقال يوسف فى عجب :

ــ أليس هذا هو التصوف ؟

ــ لا يا بنى ، فالتصوف الحق هو رياضة النفس ، ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة ، وحمله على الأخلاق الحميدة من الزهد والحلم والصبر ومكارم الأخلاق .

ــ ولكن كتب التصوف كلها تتحدث عن الهيام والوجد والرقص .

ــ التصوف الحق هو تزكية النفس ، وتطهير القلب ، ومراقبة الله تعالى فى الأفعال والأقوال ، ولكن الشيطان قد صد الناس عن العلم ، وأراهم أن

المقصود العمل ، فلما انطفأ مصباح العلم تخبطوا فى الظلمات .

فقال يوسف فى ثقة :

ـــ إننى كلما خلوت بنفسى وجاهدت رغباتى شعرت كأن حجبا كثيفة تتمزق عن حسى .

ودخل حامد ، وجلس بالقرب منهما يصغى إلى حديثهما ولكنهما لم يحسا به ، قال الشيخ إبراهيم :

ـــ تضعف الخلوة سلطان الشاعر ، فينعكس نور الأبصار إلى البصائر فيرى صاحبها ويسمع ويشم ويدرك ما لا يشاركه به غيره ممن ليست له تلك الحال ، حتى إنه ليزج به فى عالم الخيال فيرى فى يقظته ما لا وجود له فى الخارج ، ويسمع من نفسه تارة ، ومن الأرواح التى تتمثل له تارة كلاما لا يسمعه غيره وإن كان بجانبه ، ويشم روائح طيبة لا مصدر لها من المادة ، وتعرض له أذواق ووجدانات روحية كثيرة لا يمكن التعبير عنها كما أنه لا يمكن للرجال أن يعبروا للأطفال عما هو خاص بهم من لذة وألم ، ويتبع هذه الأحوال معارف صحيحة وأفهام دقيقة ، فى تخيلات وأوهام كثيرة يجد لها صاحبها لذة عظيمة يحتقر فى جنبها ما سواها .

وتململ حامد وهو ينظر إليهما وقد اتسعت عيناه ، ولم يطق المكث فقام وغادر المكان ودخل إلى القاعة ، فقالت له سعدية :

ـــ لماذا تركتهما ؟

فقال حامد وهو يلوى شفته السفلى :

ـــ لو بقيت معهما لطار البرج الباقى من عقلى ، لا يمكن أن يكون حديثهما وكلامهما كلام عقلاء .

فقالت سعدية وهي تبتسم له :

ـ ماذا يقولان ؟.

فقال حامد وهو يهز كتفيه :

ـ كلام فارغ كثير ، كل ما وعيته منه أنه الإنسان قد يرى ما لا وجود له ، ويسمع كلاما لا يسمعه غيره وإن كان إلى جانبه .

ومد يده يتحسس سعدية ، فقالت له سعدية فى زجر حبيب :

ـ ماذا تفعل ؟ .

ـ إننى أراك وأخشى ألا يكون لك وجود .

وضحكت ضحكة ناعمة فقال :

ـ وأسمع ضحكاتك ، ويا ليت لا يسمعها أحد غيرى وإن كان إلى جانبى .

٦

هبت الريح باردة عاتية ، ونشر الليل حجبه ، فلاذ الناس بدورهم يحتمون بها من البرد القارس الذى كانت ترتجف منه الأبدان ، وتصطك الأسنان . وجلست خديجة فى بيتها ترقب عودة علوان ، فقد خرج مع الفجر و لم يعد حتى الآن وقد انقضى من الليل ثلثه .

وأصاخت سمعها ، فكانت كلما سمعت حركة رفعت رأسها وأرهفت حواسها وتحفزت للهرولة صوب الباب إذا ما دقه زوجها ، ولكن كانت الأصوات تتلاشى دون أن يمس أذنيها الصوت الحبيب الذى ترقبه متلهفة .

وتقضى الوقت بطيئا وهى فى جلستها بالقرب من الباب ، فكاد البرد يعصف بها ، فنهضت متثاقلة وذهبت إلى القاعة ، واعتلت ظهر الفـرن وتمددت فوقه فأحست الدفء اللذيذ يسرى فى جسمها ، وإذا بها تشرد وتهيم فى دنيا خيالها فترف على شفتيها بسمة رضى واستسلام .

راحت تتذكر الشهور الجميلة التى أمضتها فى دار علوان ، إنها تمضى سحابة يومها فى عمل مضن شاق ولكنها ما كانت تتململ ، فهى تعمل ليرضى عنها علوان ، فرضاه غاية ما تصبو إليه ، إنها لتذكر اللحظات السعيدة التى يحتويها بين ذراعيه المفتولتين فتغمرها لذة عارمة .

إنها تحب زوجها وتتمنى أن تعيش كل حياتها فى ظله قانعة راضية . تزوجت قبله ثلاث مرات ، ولكنها لم تشعر نحو أحد أزواجها بمثل هذا الحب

الطاغى الذى استبد بها . كانت شابة وكانوا شبانا ، ولكنها اليوم قد بلغت الخامسة والأربعين وزوجها يصغرها بخمسة عشر عاما ، إنه موفور الشباب والفتوة يملأ عليها دارها بهجة وأملا متجددا .

وانقضى من الليل نصفه و لم يعد علوان ، فإذا بخاطرة بغيضة تتدسس إلى رأسها فتقطع حبل أحلامها الوردية وتهمس فى جوفها ، إن علوان قد ذهب ولن يعود ، ذهب كما ذهب أزواج من قبله ، فنهضت مفزوعة .، وتلفتت مرعوبة ، وهبطت من فوق الفرن وراحت تجوس خلال الدار المظلمة الضيقة فى قلق ، ودخلت الحظيرة فربا قلقها وزادت مخاوفها ، كانت خالية ، فقد باع علوان جميع غنمها و لم يعد عندها ما تملكه أو يطمعه فيها .

واكتنفها أسى عميق ، كانت على يقين فى قرار ضميرها أن علوان ما تزوجها إلا من أجل مالها ، ولكنها فى غمرة النشوة نسيت ذلك أو جاهدت لتنساه ، فما كانت تظن أن تتبدد أغنامها سريعا ! .

وأخنقها استسلامها ليأسها فأخذت تؤكد لنفسها أنه سيعود ، وأنه ما عاقه عن العودة الليلة إلا البرد الشديد ، فمن يدرى ، قد يكون اضطر إلى المبيت عند أحد أصدقائه فإذا ما أشرقت الشمس وبعثت الدفء فى الكون عاد إلى داره معتذرا عن الليلة التى أمضاها مرغما بعيدا عن أحضانها .

وأفرخ روعها بعد أن انخدعت راضية لأوهامها ، فاسترسلت فى أحلامها وأخذت تفكر فيما تقول له عندما يعود فى الصباح وفيما تفعله لتفصح عما يكنه له فؤادها ، رأت أن ترتمى بين ذراعيه وأن تغمره بقبلاتها ولكنها طردت هذه الفكرة من رأسها ، فهى وإن كانت تشتهى ذلك إلا أنها عرفت بغريزتها الأنثوية أنها لو فعلت ما تحبه وتتمناه لأطمعه ذلك فيها وشجعه على السهر

وترك الدار ليالى وأياما وهى لا تطيق بعده ، فعزمت على أن تبدى غضبها وتتدلل حتى يترضاها ويعدها أنه لن يعود إلى مثل هذه الفعلة .

وسرى صوت المؤذن يؤذن بالفجر ، وارتفع صياح الديكة ، وبدأت الدنيا تتمخض عن مولد يوم جديد ، فعادت مخاوفها تنبثق فى أغوارها وتعصف بها . خطر لها أن تخرج تبحث عنه وتنقب ، ولكن أين تتوجه الساعة وما أشرقت الشمس بعد ؟!

وجلست ضيقة الصدر حانقة ، تضنيها مخاوفها وتخزها خواطرها ، حتى إذا أريقت الشمس من الكوة الوحيدة فى القاعة هبت كالعاصفة ، واندفعت فى طرقات القرية تتلفت ، تتفرس وجوه الخارجين إلى حقولهم لعلها تجد من شغل به قلبها .

وراحت تمر على أصدقائه تسألهم عنه ، وتدور على دكاكين القرية والمقهى المطل على الطريق الزراعى ، ومشى التعب فى أوصالها ولكنها لم تركن إلى الراحة ، كان قلقها يعذبها ، ولمحت أحد أصدقائه فهرعت إليه وسألته فى لهفة :

— أرأيت علوان ؟ إنه لم يعد إلى الدار منذ خرج فى صباح البارحة .

فقال لها فى هدوء :

— سافر .

فقالت له وقد أحست قلبها يغوص فى قدميها :

— سافر ؟! إلى أين ؟

— إلى مصر .

— ومتى يعود ؟.

— لا أدرى ، قال لى إنه مسافر ليبحث عن عمل .

وعشش اليأس فى قلبها فأطرقت ، وانطلقت أسيفة . ذهب علوان كما ذهب أزواجها الثلاثة قبله ، وتقلص ظله و لم يبق لها إلا إبراهيم ، فسارت إلى دار أبيها لتعيش فيها . تكد وتعمل وتدخر ثمرة جهودها لتشترى بما تدخره ما يغرى رجلا من الرجال المحرومين على أن يتزوجها ، فتعيش فى ظله ليالى وأياما حتى يتم له الاستيلاء على مالها وتبديده ثم يفر منها بعد أن يخلف لها ذكريات عزيزة تحيا عليها فى سنى الجدب والكفاح !.

٧

انطلق يوسف بقامته الطويلة ووجهه الأسمر الدقيق وجلبابه الأبيض ، وقد وضع على رأسه عمامة صغيرة ، وما مد بصره إلى الحقول المترامية حوله حتى انقبض صدره ، فالأرض السوداء قاحلة ، جفت فيها الأعواد وارتمت على جنبها ميتة ، والصبية يغدون ويروحون عابسين فى ثيابهم الممزقة وقد جلس النساء عند الترعة يغسلن ثيابهن صامتات مطرقات ، فإذا ما خطر لإحداهن أن تطلق لسانها عددت تشكو الزمان الذى مال ، والرجال تعلو وجوههم غبرة ، يفزعون من الغد إذا طاف برءوسهم ، فما الغد إلا سياط إسماعيل تمزق أبدانهم لتتدفق قطرات أموالهم أنهارا فى خزائنه الخاوية .

وعبر الجسر وسار يغذ السير ، فلما لاحت له شجرة التوت والساقية تمهل يتلفت وقد خفق قلبه ، كان يبحث بعينيه عن سعدية فما جاء إلا ليودعها قبل أن يرحل ، وإن خادع نفسه وأوهمها أن الوفاء للشيخ إبراهيم هو الذى جعله

يقطع هذه المسافة الطويلة على قدميه تحت وهج الشمس الحامية .

ولمحها بالقرب من شجرة التوت فاتجه إليها متفتح النفس ، يحس دبيب النمل يسرى فى روحه ، وإحساسات لذيذة تمور فى جوفه ، حتى إذا ما دنا منها وأحست قربه ورنت إليه بعينيها السوداوين الواسعتين فى دهش ، دثره اضطراب ، ورفت على فمه بسمة حائرة .

وأشرق وجهها عن اللؤلؤ النضيد ، فسكن قلقه ورد إلى طبعه فقال فى طلاقة :

ـــ حان ميعاد رحيلى فجئت أودعكم .

فقالت سعدية وهى تنظر خلفها :

ـــ تريد أن تودع جدى ؟ إنه هناك .

فقال وقد لمعت عيناه ببريق أخاذ وتهدج صوته قليلا :

ـــ جئت لأودعكم جميعا ، فقد أحسست فى الأيام التى كنت أزوركم فيها أننى صرت واحدا منكم ، يا طالما شعرت أنكم أقرب إلى من أهلى .

وصمت قليلا وسعدية تنظر إليه فى شرود . فقد أحست حرارة حديثه وقرأت فى عينيه ما لم ينطق به لسانه ، كانتا تصيحان أنه ما جاء إلا ليودعها هى ، فتدفق الدم إلى وجنتيها واشتد وجيب قلبها ، واستشعرت غبطة يغلفها قلق و لم تنبس بكلمة ، وأراد أن يقول شيئا ، أن يمد حبل الحديث فقال :

ـــ ماذا تريدين من مصر ؟.

فقالت فى براءة :

ـــ أريد أن أراها ، إن جدى يحدثنى عنها حديثا عجيبا حتى حببها إلى ، ليتنى أراها يوما .



ورنت إليه بعينيها السوداوين الواسعتين فى دهش ، دثره اضطراب

وهم بأن يقول لها مداعبا : « تعالى معى » ولكنه كبح جماح نفسه وقال :

ـــ سأقرأ لك الفاتحة فى الحسين .

فقالت له متمهلة :

ـــ وأرجو أن توقد لى فى مسجد السيدة زينب شمعة .

فقال لها وهو يبتسم :

ـــ إن شاء الله .

وانطلقا صوب الشيخ وحفيده ، فلما رآهما حامد انقبض صدره وتحركت عقارب الغيرة فى جوفه فعبس وقطب جبينه ، ولم يستطع أن يدارى ما به فصاح :

ـــ سعدية ! سعدية !.

فاتجهت إليه وقالت له :

ـــ ماذا تريد ؟ .

فقال فى غضب وحدة :

ـــ ما الذى جاء به إلى هنا ؟

ـــ جاء ليودعنا قبل أن يرحل .

فقال وهو يحرك يده فى ضيق :

ـــ مع السلامة .

واتجه الشيخ إبراهيم إلى يوسف وهو يرحب به :

ـــ أهلا بولدى ، ما الذى جاء بك فى هذه الساعة ؟.

ـــ جئت أودعكم قبل أن أرحل ، سأسافر فى قطار الساعة الرابعة .

فقال الشيخ فى استسلام :

ـــ الخيرة فيما اختاره الله ، كنت أحب أن تنجو بنفسك وتبتعد عن الأزهر :

ثم ابتسم ورتل :

ـــ الله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

ومد يوسف يده يصافح الشيخ ، فأخذ الشيخ يصافحه وقد بان التأثر فى وجهه وقال فى رقة :

ـــ مع السلامة ، أحب أن أسمع عنك كل خير .

ـــ ومد يده إلى حامد فتناولها فى تراخ ، والتفت إلى سعدية فإذا بوجيب قلبه يشتد ، وإذا بحنان دافق يفيض من عينيه ، ومد إليها يده وصافحها فى رقة فأحس حامد كأن نارا ترعى فى جوفه ، وتقلصت يده على فأسه وتمنى من كل قلبه أن يرحل سريعا .

وانطلق يوسف وقد انمحت كل المشاهد من رأسه ولم تبق إلا صورة سعدية ، كانت تملأ الفضاء أمامه وتتخايل له فى كل ما يمد إليه بصره ، فقد ملأت أقطار نفسه واستولت على لبه وتفكيره .

٨

وقف الشيخ إبراهيم يتلفت ، وقد ترقرقت فى عينيه الدموع واضطرب صدره بالحنق والضيق وران على وجهه الأسى العميق . كان ينظر إلى أرضه التى تعهدها بجهده وحرثها بعرقه فيراها ميتة يخيم عليها الخراب ، إنها يابسة صادئة تتلهف إلى الماء ، ومن أين له أن يرويها إذا كان الأجانب قد تحكموا حتى فى الماء !.

استكان الخديو إسماعيل للأجانب ، فتغلغلوا فى الدولة وتحكموا فيها يراقبون مواردها وأوجه الإنفاق فيها بحجة ضمان ديونهم ، ولم يقف تدخلهم عند وظائف الدولة بل امتدت مخالبهم إلى منابع الثروة فراحو ينهلون منها فى نهم وجشع دون أن يصدهم أحد أو يزجرهم زاجر ، وجعلوا يستبدون بالشعب ويمتصون دماءه دون أن يحرك الخديو ساكنا ، ولماذا يتحرك ما دام كل غايته أن يرضوا عنه وأن يغفلوا عيونهم عن مظالمه .

كان بولينو باشا من الأجانب المقربين من الخديو ، وكان هذا كافيا ليطلق يده فى الدولة يفعل ما يريد ليثرى ، فاشترى مضخة بخارية ترفع الماء وأغلق بنفوذه الترعة ، وأخذ يبيع الماء للأغنياء فى أيام التحاريق ، ويبيعه للفقراء فى أيام الفيضان ، وما كان أحد يجأر بالشكوى من ذلك الاستغلال المهين ، ولمن يشكو ؟ فرجال الدولة الكبار قد سكتوا على الظلم وآثروا العافية ما داموا يحصلون على نصيبهم من الأسلاب ، ورجال الدين مالوا مع السلطان ابتغاء

مرضاته طمعا فى كساوى العيد وهباته التى ما كانت تغنى أو تسمن من جوع .

أحنق ذلك الظلم الشيخ إبراهيم فراح الغيظ يمور فى جوفه ، وضايقه أن يستكين لذلك الطغيان فثارت ثائرته ، وخطر له أن يحطم ذلك الهوان ولكنه أحس أنه وحده أضعف من يقوض دولة الجور ، فرأى أن يجمع جيرانه المستضعفين وأن يكتلهم ليجعل من ضعفهم قوة ، وأن يقودهم فى ثورتهم لعله ينتزع من أنياب الوحوش بعض ما سلبوه منهم من حقوق .

وبعث حامدا إلى جيرانه يدعوهم لموافاته تحت شجرة التوت ، ليبايعوه على مقاومة ذلك الظلم الذى عصف بهم وزلزل الأرض تحتهم ، فراح الفلاحون يتقاطرون عليه ، والتفوا حوله وأعاروه سمعهم ، فقال لهم فى حماسة وانفعال :

ــ إن الحكومة تسومنا الحيف والجور وتنزل بنا الخسف والذل ونحن صابرون ، وتنزع منا قوتنا وقوت عيالنا بالمقرعة والسوط ونحن راضون ، ويا ليت الأمر اقتصر على الحكومة ، بل زاد الخطب إذ أطمع استسلامنا الأجانب فجاءوا يتحكمون فينا ، يستغلون ضعفنا ويسلبون أموالنا دون أن نثور ، لماذا نصبر ونستكين ؟ لماذا نرضى الهوان ؟ ماذا ننتظر ؟.

هذا بولينو باشا أغلق الترعة وأقام آلته الجهنمية ليرغمنا على أن نشترى منه ماء النيل ، انظروا إلى أرضنا العزيزة تموت أمامنا من الظمأ والماء يجرى على بعد أمتار منا ، لماذا نصبر على هذه الضعة ؟ لماذا نرضى بهذ الهوان ؟ هبوا من غفلتكم ، انفضوا عن أنفسكم غبار الذل والعار ، سيروا معى إلى الترعة لنفتحها وأنف بولينو راغم ، فقد أجرى الله لنا ماء النيل و لم يجره للمستغلين

الجشعين ، سيروا .

وانطلق الشيخ إبراهيم على رأسهم وقد تدفقت الدماء حارة فى عروقهم ، وأسرع حامد ليلحق بجده ، حتى إذا ما لاحت الترعة والسد الحائل بينهم وبين مائها ، اندفع حامد كالعاصفة يعدو وانطلق الشبان خلفه ، فلما بلغوا العجلة التى تفتح السد راحوا يديرونها فى حماسة ، فتدفقت المياه فى الترعة وجرت إلى الحقول تحيي مواتها فانتعشت النفوس وهزها الطرب ، وارتفعت صيحات الفرح ، ولكن لم تدم الغبطة طويلا فقد ظهر رجال بولينو المسلحون ، جاءوا ليمنعوا فتح الترعة .

ودارت معركة بين الرجال ، وقرعت الهراوات الهراوات ، وتشابك الرجال بالأيدى واقتتلوا على الماء ، وشج رأس حامد وسال دمه على وجهه ولكنه ظل يقاتل قتال المستميت ليمنع إغلاق الترعة .

وأز فى الجو صوت الرصاص فانقبض صدر الشيخ ومن معه حتى إذا ما ابتعدوا عن ميدان المعركة راح يتلفت يبحث عن حفيده ، فلما وقعت عليه عيناه ورأى الدم ينبثق من رأسه ، ذهب إليه وقال له فى صوت أسيف :

— فى سبيل الله دمك يا حامد .

وانطلقوا مطرقين يلفهم حزن عميق .

٩

عاشت خديجة تتلفت ، كانت إذا انطلقت فى الطريق ولمحت شابا مفتول الساعد قوى البنيان خيل لها وهمها أنه علوان ، فتغذ السير لتلحق به خافقة القلب ، وتتفرس فى وجهه ثم تغض من بصرها وقد انقبض صدرها حسرة ، وكانت إذا ما ذهبت إلى السوق وما أكثر ما تذهب إليها فى هذه الأيام ، لتبيع الدواجن التى تربيها وتدخر ما تربحه لتغرى به رجلا يوما تعيش فى ظله . إنها تنقب عن علوان ، فهو وإن فر منها ما زال يستولى على تفكيرها وحواسها ، إنها لا تستطيع أن تنسى أبهج لحظات حياتها ، اللحظات التى عاشتها معه بكل مشاعرها وإحساساتها ، اللحظات التى نسيت فيها كل شىء إلا نفسها .

وكانت إذا سمعت همهمة فى جوف الليل ، أو طرقا على الباب أوهمت روحها أن علوان قد جاء يصلح ما بينه وبينها ، فتصيخ سمعها منتشية مضطربة ، أو تهرع إلى الباب تفتحه يغشاها قلق لذيذ ويسرى فيها أمل نابع من وحيها ، ولكن سرعان ما تتبدد الأوهام عن وجه الحقيقية المرة التى تقوض أحلامها .

كانت تعيش فى الذكريات ، وتحيا على أمل ، ولكنها ما كانت تستسلم بكليتها لأوهامها ، كانت تكد وتكدح وتعمل وتكاد تحرم نفسها من قوتها لتدخر كل ما تستطيع أن توفره ، فإذا كان علوان قد هجرها فما أكثر الشبان الذين يقبلون أن تعيش فى ظلهم ما دامت تتقدهم الثمن .

ستصبر حتى إذا ما أصبحت تملك ما يجذب إليها رجلا بعثت إلى علوان أينما كان من يفاوضه على تطليقها على أن تبرئه من كل ما تستحقه قبله ، فما كانت فى حاجة إلى نفقة ، ولكنها تفتقر دائما إلى من تجنى ثماره وتتفيأ ظلاله .

وغمرت الشمس الدنيا فنهضت خديجة تحمل الطعام ، وخرجت إلى الحقل ، وفيما هى منطلقة فى طريقها لمحت أباها الشيخ وحامدا وسعدية وشيخ البلد وجابى الضرائب وبعض الخفراء وذلك المرابى اليونانى الذى كان يسير فى ركاب الجابى أينما ذهب ، مقبلين ، فدثرتها رهبة ، وخفق قلبها فزعا ، حزرت كل شىء ، جاءوا ينتزعون من الشيخ الضرائب وما كان يملك ما يدفعه .

وسارت معهم مطرقة قد لاح فى وجهها الهم وحاق بها الضيق ، وسيطر على الجميع سكون بغيض ، حتى إذا بلغوا الدار دخل الجابى وشيخ البلد وبعض الخفراء ينقبون فيها عما يفى بالضرائب ، ولكنهم لم يعثروا على شىء فقال الجابى فى حدة :

ـــ إما أن تدفع المال الآن أو ترهن له أرضك ليؤدى المال عنك .

والتفت إلى اليونانى القصير المنتفخ الكرش فإذا ببريق الجشع يشع من عينيه ، وقال الشيخ إبراهيم فى صوت خافت :

ـــ ليس عندى ما أدفعه الآن ، أمهلونى شهرا .

فقال الجابى فى سخرية :

ـــ لو أمهلناكم جميعا لخربت البلاد ، إما أن تدفع أو تتركه يؤدى دين الحكومة عنك .

فقال الشيخ فى حدة :

ـــ لن أرهن أرضى أبدا ما دام فيّ نفس يتردد .

فقال الجابى وقد لوى شفته السفلى هزءا :

ـــ سنرى .

والتفت إلى شيخ البلد والخفراء وقال لهم :

ـــ اجلدوه .

وقال للشيخ إبراهيم معتذرا :

ـــ ما كنت أحب أن يجلد شيخ كبير مثلك ، ولكنك عنيد .

وتحرك خفيران لينفذا أمر الجابى ، فأحس حامد دماءه تفور فى عروقه و لم يستطع صبرا فهجم على الرجلين ليجول بينهما وبين جده ، فثار الجابى ولطمه على وجهه وصاح فيه :

ـــ يا فلاح ، إذا صدرت منك أية حركة أمرتهم أن يجلدوك حتى تموت .

وحدج حامد الجابى الجركسى فى غضب ، وإذا بسعدية تجذبه من يده وقد ملأت الدموع مقلتيها .

ووضعت قدما الشيخ فى الفلقة ورفعتا إلى السماء ، وهوى خفير بالعصا عليهما ، فأحست خديجة كأن خنجرا يمزق فؤادها ، وزمجر حامد وضغط على يد سعدية فى غضب ، ولو طاوع نفسه لهجم على الجابى الجركسى يفترسه ، ولكنه كبح جماح عواطفه التى كانت تضغط على رقبته حتى تكاد تخنقه .

وارتفعت العصا لتهوى على قدمى الشيخ ، فدارت الدنيا بخديجة وصاحت مفزوعة :

ـــ اتركوه .. اتركوه .. سأدفع ما تريدون .

ومدت يدها فى جيبها وأخرجت النقود التى ادخرتها لتشترى بها ما يغرى

شابا على الزواج منها ، لتعيش فى ظله تختلس من الزمن القاسى ساعات الهناءة التى تدفع ثمنها من عرق جبينها ، وتقدمت من الجابى ودفعت له ما ينقذ أباها من العذاب المهين ، ثم انطلقت إلى الدار تبكى وتنتحب ، أحنقها أن ترغم على أن تدفع للسلطان قهرا ما كانت تشتهى أن تدفعه لشاب وهى راضية طيبة النفس

ونهض الشيخ إبراهيم فأسرع إليه حامد وسعدية ، فسار يتوكأ عليهما باسر الوجه ، كان يحس مهانة ، ظل صامتا يحرق أنيابه فى غيظ ثم قال :

ـــ والله لا أدرى كيف ننام على هذا الضيم ؟ كيف نرضى هذا الهوان ؟ هل أعقمت البلاد ؟ إن إسماعيل ظالم فاجر ، وإن استبداده مخالف لتعاليم الدين ، فسلطان الحاكم مستمد من حسن قيامه بتنفيذ الشريعة ، ولكنه جعل يسومنا سوء العذاب ليبتز أموالنا ينفقها على شهواته وملاهيه ، إننى أنا الذى أبغض إراقة الدماء على استعداد لأقتله ، والله إنى فى حيرة ، ألم يعد فى البلاد أحرار يثورون لكراماتهم ويقتلونه ؟

والله لو أتيحت لى فرصة ما أحجمت وما ترددت لحظة .

ثم رفع وجهه إلى السماء وقال فى حرارة :

ـــ اللهم انصرنا على القوم الظالمين .

١٠

ألفت نفسية إسماعيل الإذعان لمطالب الدول الأجنبية ، وذل حتى أصبح أسيرا فى أيدى إنجلترا وفرنسا ، وأمعن فى الخضوع حتى قبل أن تحكم مصر وزارة أوربية وزير ماليتها السير رفرز ولسن ، ووزير أشغالها مسيو دى بلنيير !.

اندك آخر حجر فى صرح استقلال الحكومة المصرية ، ورأت الدول الأوروبية الفرصة سانحة للاشتراك فى نهب هذه الغنيمة الباردة ، فراحت إيطاليا تطالب بنظارة الحقانية ، والنمسا تطالب بوزارة المعارف ، ما دام إسماعيل المستبد الفخور قد طأطأ رأسه بعد أن غرق فى الدين وقبل أن يكون خاضعا لولاية الطامعين فى البلاد ، ولولا أن إنجلترا وفرنسا ما كانتا ترغبان فى أن تقاسمهما الدول الأخرى هذه اللقمة السائغة لأقام العدل فى البلاد الإسلامية وزير إيطالى ، ولأشرف على تثقيف أبناء المصريين آخر نمسوى ، ولكنهما رأتا أن ترضيا الدولتين ، فعين إيطالى مراقبا عاما للحسابات ، ونمسوى مساعدا لناظر المالية .

كان السير رفرز ولسن وزير المالية على صلة وثيقة ببيت روتشيلد ، فكان أول ما فعله أن رهن الأطيان التى نزل عنها إسماعيل وأسرته لذلك البيت المالى ، وعقد معه قرضا بثمانية ملايين ونصف من الجنيهات ، وكان من المتفق عليه أن تدفع منه مرتبات الموظفي المتأخرة ، ولكن السير ولسن لم يفعل بل

دفع منه بعض الأقساط للدائنين ، فما كان وزير المالية البريطانى ليسهر على مصلحة الوطنيين بل جاء يأخذ منهم وإن كانوا فى ضيق ليعطى الأجانب .

واستمرت الضرائب تجبى بالسوط والمقرعة ، فاشتد الكرب بالناس ، وجاء من القرى مئات من المشايخ يمثلون قراهم واحتشدوا أمام أبـواب النظارات ، فلما لمحوا نوبار باشا رئيس النظار تحركت أحقادهم ، رأوا فيه الرجل الأرمنى الذى أنشأ المحاكم المختلطة التى وضعتهم فى قبضة المرابين اليونانيين ، تلك المحاكم التى كانت تجردهم من كل ما يمتلكونه قبل أن يتسع لهم الوقت ليعرفوا بأى شيء هم فى الحقيقة مطالبون ، فقد كان قضاتها أجانب ومداولاتها بلغات أجنبية لا يفقهونها ، ولو طاوعوا إحساساتهم لفتكـوا بنوبار ، ولكنهم ما جاءوا إلا ليتظلموا مما هم فيه ، فهرعوا إليه يسألونه تخفيف الضرائب فوعدهم خيرا ، ورأوا السير رفرز ولسن فأسرعوا إليه يلتمسون منه أن ترفع عنهم سياط الجباة الغلاظ ، فابتسم لهم ووعدهم خيرا ، وعادوا إلى قراهم يحملون الوعود المعسولة .

وحان أوان دفع الربع الثالث من ضرائب العام ، وكانت سنة شديدة فراح الجباة يجوبون القرى يحصلون الضرائب بالسوط والمقرعة ، بينما كان المصريون يموتون على قوارع الطرق من الجوع ، وقد تركت أراض شاسعة جافة يابسة ميتة يعوى فيها الخراب بعد أن هجرها أصحابها من ثقل الأعباء المالية ، وكان الفلاحون يغدون ويروحون على أقدامهم فى ذلة ، باعوا دوابهم ، وباع النساء حليهن ، وغصت أقلام الرهون بالمرابين يحملون وثائقهم ، والمحاكم المختلطة لا عمل لها إلا النظر فى قضايا إغلاق الرهون إجابة لطلب هؤلاء المرابين .

الناس فى ضيق ، لا يجدون ما يستر أجسامهم ويقيهم زمهرير البرد فى

الشتاء وحر الصيف اللافح ، ولا ما يمسك أرماقهم ، فقد كان الفيضان شديدا عاليا حتى غمر الحقول وأتلف المحاصيل وترك الناس يترنحون من الجوع ، كأنما غضبت الطبيعة على المصريين لاستكانتهم للذل ونومهم على الضيم ، فتآزرت مع الظالمين لعل النائمين يهبون من سباتهم ثائرين فى وجه الظلم والطغيان .

وفى هذا الضنك والكرب الشديد كان إسماعيل يقيم الولائم الفاخرة للأجانب فى الكشك الخديوى القائم على سفح الهرم ، فكانت الأطعمة الشهية تكدس على الموائد ، وأفخر أنواع الشمبانيا تجرى أنهارا على مرأى من جمهور من المصريين الجائعين الذين كانوا ينظرون وفى الحلق غصة ، وفى الصدر ثورة مكبوتة ، وفى النفس مرارة ، وفى السرائر حنق شديد .

وخرج إسماعيل يتنزه كعادته كل يوم على جسر قصر النيل ، فانسابت عربته الفاخرة المكشوفة يجرها جوادان كريمان ، وقد جلس الحوذى الإيطالى فى مقعده شامخا بأنفه وعلى رأسه قبعته العالية ، وإلى جواره إيطالى آخر فى ثياب مزركشة وقد ربع ذراعيه على صدره ، وانطلق أمام العربة فارسان من فرسان الحرس ، والتف حولها فرسان المماليك ، وأخذ الناس ينظرون إلى الركب الفاخر فى فتور ، بينما كان شيخان يرمقان إسماعيل فى شزر وقد ملىء صدراهما حنقا عليه ، كانا يحسان آلام الشعب ويعرفان حقيقة النكبة التى حلت بالبلاد .

كان أحدهما فى الثالثة والثلاثين ، يلبس عمامة بيضاء وقفطانا ، رفيع القامة أسمر اللون يلوح ذكاؤه فى عينين تنفذان إلى الأعماق ، والآخر فى الأربعين ، أسمر اللون ربعة ممتلىء قوى البنية ، جذاب النظر نافذ اللحظ ، خفيف

العارضين مسترسل الشعر ، بجبة وسراويلات سوداء تنطبق على الساقين ، وعمامة صغيرة بيضاء على زى علماء الآستانة ، وسحنته تدل على أنه ليس مصريا ، كان عالما حكيما راح يجوب الشرق ينفخ فيه من روحه لينفض عنه غبار الخنوع والاستسلام .

التفت إلى تلميذه وقال :

ـــ لابد من خلع هذا الطاغية ، بل لابد من قتله وإراحة المصريين منه .

فقال تلميذه :

ـــ هذا هو الرأى ، ولكن من يقتله ؟.

ـــ أنت ..

وانطلق السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده يتناجيان ، ويفكران فى تخليص الناس من ذلك الذى يجر البلاد إلى هاوية الدمار .

١١

أحس الخديو إسماعيل أن المصريين يمقتون حكمه ، وأنهم يتمنون ذلك اليوم الذى ينقشع فيه ظل سلطانه عنهم ، فأطرق يفكر فيما يفعله ليحول ذلك البغض العام إلى وزرائه الجدد الذين كان يمقتهم من كل قلبه ، بعد أن أصبح تحت وصايتهم لا يستطيع أن يمارس استبداده الذى ألفه ثمانية عشر عاما .

وكان السير رفرز ولسن أكثرهم بعدا من نفسه ، فهو يكرهه من كل قلبه منذ ذلك اليوم الذى اتهمه فيه ، وهو الخديو العظيم ، بأنه مسئول عن عجز فى الإيرادات قدره عشرة ملايين من الجنيهات ، وطلب منه فى مقابل ذلك أن ينزل عن أطيانه للدائنين ، بل وإرغامه على أن ينزل عن سلطته لمجلس نظاره ليكون هذا المجلس مسئولا عن أعمال الحكومة ، ولم يكتف السير رفرز ولسن بذلك ، بل فرض نفسه عليه فرضا وصار وزير ماليته ، وسلب منه أطيانه وسلطانه وأقام من نفسه وصيا عليه .

وراح إسماعيل يحصى أخطاء خصمه التى تدنيه من قبضة يده ، فقد أخذ السير رفرز ويلسن يمسح الأراضى الزراعية وينفق فى ذلك الأموال الكثيرة ، فأفزع ذلك الفلاحين وأخافهم واعتبروه مقدمة لفرض ضرائب جديدة عليهم ، فحنقوا فما كانوا بقادرين على أن ينهضوا بالأعباء المالية الموضوعة على كواهلهم ، فكيف يفكر مجنون فى أن يزيد فى متاعبهم وأن يضع على عواتقهم أعباء جديدة ! .

وفكر ولسن فى إيجاد التوازن المالى فخفض مرتبات الموظفين المصريين و لم يخفض مرتبات الموظفين الفرنسيين والبريطانيين ، فقد كان شعار العصر أن يتحمل الوطنيون كل الغرم ، وأن يكون الغنم للأجانب وحدهم فالبلاد لهم بقرة حلوب ، فملأ الاستياء النفوس ومار الحنق فى الصدور .

واقترح السير رفرز ولسن مصادرة أراض تبلغ قيمتها خمسة عشر مليونا ، فطاشت عقول أصحاب الأراضى ، وباتوا فى قلق واضطراب يوجسون خيفة من ذلك الوزير البريطانى الذى وقعت البلاد فى قبضته ، فانضمـوإلى الساخطين .

وحل أوان قسط مايو ، والخزانة المصرية خاوية ليس فيها ما يكفى لدفعه ، فراح السير ولسن يفكر فيما يفعله ليرضى الدائنين على حساب الوطنيين كعادته ، فقد كان ممثلا لبيت روتشيلد يستمد منه التأييد ، وإن جعله سوء طالع مصر وزيرا لماليتها ، فأرغم الوزارة على أن تأمر بتسريح ألفين وخمسمائة ضابط من ضباط الجيش فسرحوا بغير أن تدفع متأخراتهم ، ودفع القسط مما وفر من مرتباتهم ، فأفعمت قلوب الضباط بالحقد والغضب .

رأى إسماعيل أن يستغل كل ذلك ليتخلص من الوزارة الأوروبية ، فأرسل إلى جاهين باشا كنج من رجال البلاط ، فلما وافاه راحا يتهامسان . وما خرج جاهين باشا من عند الخديو حتى أرسل إلى لطيف أفندى سليم زوج أخته ومدير المدرسة الحربية ، وجعلا يتدبران الأمر ويفكران ويعملان الفكر ، وما افترقا حتى كانا قد اتفقا على كل شىء يحقق للخديو أربه ، ويطفىء نار الحقد المتلظية فى جوفه .

خرج طلبة المدرسة الحربية فى مظاهرة يقودها لطيف أفندى سليم

وانطلقت الهتافات مدوية ضد الوزارة ، فانضم إليها الساخطون يهتفون منفسين عن مشاعرهم ، وبلغت المظاهرة ديوان الحكومة ، والهتافات تدوى بسقوط الوزارة الظالمة التى لا هم لها إلا اضطهاد المصريين .

ولمح المتظاهرون نوبار باشا رئيس النظار يركب مركبته ، فانطلقوا إليه صائحين :

ـــ اصرفوا لنا حقوقنا من الأموال المتراكمة فى الخزائن .

وفاضت حماسة بعض الثائرين فاندفعوا إلى نوبار يلطمون وجهه ويجذبون شاربه ، ولمحوا السير رفرز ولسن فى طريقه إلى مركبته فانطلقوا إليه يسبونه ويلكمونه ويشدون شاربه ، ثم قبضوا على نوبار باشا وساقوهما إلى وزارة المالية وحبسوهما فيها .

وجاء إسماعيل محاط بحرسه ، ونظر إلى المتظاهرين وصاح فيهم أن انصرفوا ، ولكنهم ثبتوا فى أماكنهم لا يتحركون ، فالتفت إلى على بك فهمى أميرالاى الحرس وقال له :

ـــ أطلق عليهم النار .

فراح الذئب المصرى يطلق النار فى الهواء فتفرق الضباط حانقين ، وأطلق الخديو سراح نوبار وولسن ، ثم انساب إلى القصر قرير العين ، فقد حسب أن مؤامرته نجحت وإن هى إلا ساعات حتى يتخلص من الوزارة الأوربية ومن ذلك الوزير البريطانى المغرور .

وأعلن إسماعيل للملأ أنه ليس مسئولا عن الأمن ما دام نوبار باشا رئيسا للوزراء ، وما كان بقادر على أن يفصح عن رغبته بتنحية السير رفرز ولسن خشية أن يغضب الإنجليز . دار بخلده أن استقالة نوبار ستريحه من الوزراء

الذين يعملون معه ، ولكن نوبار استقال وبقى الوزيران الأجنبيان السير رفرز ولسن ومسيو بولنيير ، فقد أبلغ مسيو فيفيان قنصل إنجلترا العام الخديو أن الحكومة البريطانية تعتبر استقالة نوبار عملا شخصيا ، وأنها لا تقبل أن يترتب عليها تغيير فى سير الأمور . وأضيف إلى القيود العديدة التى قيد بها قيد جديد ، أن يكون للعضوين الأوربيين اللذين فى النظارة حق المعارضة المطلقة فى كل ما لا يوافقان عليه وكل أمر يعارضان فيه لا ينفذ ، وأن يستشير إسماعيل حكومتى إنجلترا وفرنسا فى اختيار نظاره الجدد .

ونام إسماعيل على الضيم بعد أن ذهب استقلال البلاد شعاعا ، وراح يفكر والغيظ يأكل صدره فيما يفعل ليتخلص من السير رفرز ولسن ، بينما كان الضباط يفكرون فى الثورة عليه وعزله لتخليص البلاد من شروره وآثامه بعد أن شد وثاقها بالديون وجعلها نهبا مباحا للأجانب .

١٢

انساب يوسف فى طريق القرية المتعرج وقد علق فى ذراعه بقجة ، فقد جاء فى إجازة يحمل إلى أهله وأحبابه بعض هدايا القاهرة ، وما استقر فى الدار قليلا حتى راحت صورة سعدية تملأ رأسه وتحتل أقطار نفسه ، ويستشعر لهفة فى رؤيتها والحديث إليها .

خطر له أن ينطلق إلى الحقل يقابلها هناك تحت شجرة التوت ، يناجيها ويحدثها بعض ذلك الحديث العذب الذى دار بينه وبين طيفها وهو عائد فى القطار ، ولكنه رأى أن يتريث حتى إذا مالت الشمس للمغيب وعاد الناس إلى دورهم ذهب لزيارتهم ، فهو فى شوق إلى سعدية وإلى حديث الشيخ إبراهيم .

وطاف بذهنه حامد فشرد قليلا ، ثم لوى شفته السفلى فى استخفاف ، فلولا سعدية ما تذكره ولا شغل نفسه بالتفكير فيه لحظة ، فهو يراه فلاحا خاملا كملايين الفلاحين الذين جاءوا إلى الدنيا وذهبوا عنها دون أن يحس بهم أحد ، كالفقاقيع التى تطفو على سطح الماء لتنداح فى المحيط .

وسرى فى القرية خوار الثيران وثغاء الأغنام وهديل الحمام ، ثم سكن كل شىء وساد الهدوء ، فقد بدأ الليل يرخى غلائله السود غلالة إثر غلالة . ونهض يوسف وفى جوفه قلق لذيذ يشتهيه ، وسار كالمسحور حتى إذا بلغ دار الشيخ إبراهيم راح يطرق الباب فى شوق وحنين ، وفتح الباب فأحس قلبه يكاد يقفز من فيه ، ورفت على فمه ابتسامة عذبة ، ومد بصره فإذا بمشاعره

الفوارة تخبو ، لم تفتح سعدية له الباب كما كان يأمل ويشتهى ، بل فتحت له خديجة ، فقال لها فى صوت خافت وهو يغض بصره :

ـــ الشيخ موجود ؟.

فقالت له خديجة وقد فسحت له الطريق :

ـــ أهلا وسهلا ، تفضل .

ودخل وجلس ، وراح يرفع رأسه متلهفا كلما مس أذنيه حفيف ثوب ، كان يرجو أن يراها . أن يحدثها قليلا قبل أن يدخل الشيخ عليه ، فعلى لسانه أحاديث كثيرة حنون يحب أن يفضى بها إليها ، ولكن الشيخ إبراهيم أقبل عليه فنهض يصافحه فى شوق ، قال الشيخ :

ـــ كيف أنت يا بنى ؟ والله لقد افتقدناك .

ـــ الحمد لله .

فقال الشيخ إبراهيم وفى صوته رنة ساخرة :

ـــ وكيف حال الأزهر ؟

فقال يوسف فى حماسة :

ـــ إنه فى ثورة .

فقال الشيخ فى استخفاف :

ـــ وكيف يثور الجماد ؟!.

ـــ ارتفعت أصوات تدعو إلى تحرير الفكر من قيد التقليد .

ـــ أصوات من ؟.

ـــ أصوات السيد جمال الدين الأفغانى وتلميذه الشيخ محمد عبده .

فشرد الشيخ إبراهيم قليلا وقال :

— سمعت عن جمال الدين ، أليس هو الذى ألقى محاضرة فى الآستانة فرماه شيخ الإسلام بالكفر والزندقة ؟.

— إنه هو .

— وماذا يفعل فى الأزهر ؟.

— لا يفعل فى الأزهر شيئا ، إنه يحدث الناس فى بيته ، يسخو إلى غير حد فى بذل كنوز حكمته إلى كل من حضر مجلسه وإن لم يكن من مريديها .

فقال الشيخ إبراهيم فى عجب :

— وكيف يحدث ثورة فى الأزهر إذا كان لا يحاضر فيه ؟.

— تلاميذه ينشرون أفكاره فى الصحف وتلميذه القدير الشيخ محمد عبده ينشر آراءه بين الأزهريين .

— ما الذى أغضب الأزهريين منه ؟.

— أغضبهم منه أنه يحارب جمودهم ، وأحنقهم أنه يدرس الفلسفة . إنه رجل قوى الشكيمة ، يرى أن الإسلام دين عام يناسب كافة الناس ، ويلائم جميع العصور والثقافات ، إنه يحلم فى أن يعيد للإسلام مجده وقوته .

— هل رأيته ؟.

— ذهبت مع الذاهبين يوما إلى بيته فى خان الخليلى ، وجلست أصغى إليه وأنا مأخوذ بحديثه العذب وعلمه الغزير . طريقته تختلف اختلافا بينا عن طريقة الجامدين ، إنه لا يقرأ النصوص وشرح المتون ، بل يتحدث حديثا ينجلى للأفهام وترتاح إليه النفوس . إننى أذكر أنه كان يتحدث عن فلسفة التربية ، وأذكر أنه قال إن جميع الملكات الفاضلة الإنسانية إنما هى واسطة لطرفين متضادين ، لابد من ظهور أثر كل منهما على نسبة معتدلة ، وبغلبة

أحدهما على الآخر يختل نظام الفضيلة . وراح يضرب الأمثال ليقرب المسألة إلى الأذهان ، فراح يقول إن الشجاعة وسط بين الجرأة والمخافة ، والسخاء وسط بين البذل والإمساك ، واستمر فى درسه وما أحسب أحدا قام من عنده إلا وقد وعاه .

وسمع يوسف صوت أقدام فنظر ، فألفى أمامه سعدية وخلفها حامد ، فارتبك وصعد الدم إلى وجهه ، وخفق قلبه ، وجعل يرنو إلى سعدية لحظة وقد لاحت فى عينيه الغبطة ، ثم قال فى صوت مضطرب :

ــ أهلا وسهلا . كيف حالكم !.

فقال حامد فى غلظة وجفاء :

ــ الحمد لله .

ودار على عقبيه وهم بالانصراف ، ولكنه ثبت فى مكانه لما سمع يوسف يقول لسعدية :

ــ قرأت لك الفاتحة فى الحسين ، وأضأت لك شمعة فى السيدة زينب .

فقال الشيخ إبراهيم فى حدة :

ــ هذه بدعة ، هذه وثنية ، إن هذا ليس من الدين فى شىء .

ــ آسف ، ما كنت أعرف أنها بدعة قبل أن أسمع ذلك من الشيخ محمد عبده .

وانقشع غضب الشيخ وقال :

ــ يحارب الشيخ محمد عبده البدع ؟!.

ــ إنه يحارب البدع . ويحارب الجمود ، والأخذ برواية السلف فى قبول العقائد من غير مناقشة أو اعتراض .

ورنا إلى سعدية فانقبض صدر حامد وخطر له أن يلطمه على وجهه ولكنه كبح جماح نفسه ، وقال يوسف وهو يمد يده في جيبه :

ــ أحضرت لكم معى أشياء متواضعة .

ومد يده بسبحة إلى الشيخ إبراهيم ، ثم قدم إلى سعدية عقدا من زجاج أخضر وقلبه يرفرف بين جنبيه ، واستمر يرقبها مغتبطا ؛ ولم يطق حامد صبرا فانسل من الحجرة حانقا ثائرا يصر على أنيابه فى غيظ ، ويضغط على قبضته كأنما كان يمسك شيئا يريد أن يهشمه .

وخرجت سعدية إلى القاعة تتحسس العقد فى نشوة ، ولمحت حامدا منتصبا وقد قطب جبينه ، فذهبت إليه وقالت له :

ــ لماذا تركتنى وخرجت ؟

ــ لم أطق أن أراه وهو يأكلك بعينيه .

فقالت فى دلال :

ــ أتغار منه ؟.

ولم يقو على أن يكتم شعوره نحوه فقال :

ــ لو طاوعت نفسى لفقأت له عينيه ، ولأرغمته على أن يجاور فى زاوية العميان .

١٣

البخور ينطلق فى الغرفة الفاخرة الأنيقة التى تنم عن الغنى والبذخ ، إنها إحدى غرف قصر القبة الفاخر ، والأمير توفيق جالس خاشع وقد ارتسم فى وجهه الاستسلام والإيمان ، وامرأة عجوز تتمتم فى حرارة وتلف المجمرة الفاخرة الدقيقة حول رأسه . إنها السيدة عائشة « الكوديا » تبخر ولى العهد وترقيه ، فما كان توفيق يخرج إلى زائريه قبل أن يتبخر فقد شب فى الحريم وعاش بين النساء ، فاكتسب منهن أبرز خصاله .

ونظرت السيدة عائشة إليه مليا ، ثم قالت فى إخلاص :

ـــ أمنيتى الوحيدة أن أعيش لأرقيك من عيون حاسديك يوم تصبح خديو مصر .

ورفت على شفتى توفيق الدقيقتين ابتسامة رقيقة ، وقال :

ـــ أدعو الله أن يبقيك لذلك اليوم .

ـــ لست وحدى التى تنتظر هذا اليوم ، الناس كلهم ينتظرونه . لقد نزل بهم الكرب وحاق بهم الضيق فأصبحوا يرون الخلاص مما هم فيه على يديك . السياط تمزق أبدانهم ، والحكومة تأكل أموالهم ، والمحاكم المختلطة تغتصب أراضيهم منهم لتعطيها المرابين . الناس كلهم ساخطون ، إننى ما دخلت بيتا من بيوت الأكابر إلا سمعت عبارات الاستياء مما وصلت البلاد إليه . إنهم جميعا يقولون إنك الأمل الأخير .

ـــ اللهم وفقه ليحقق أمل الناس فيه .

وشرد توفيق قليلا ثم قال :

ـــ إذا صرت حاكم هذه البلاد فسأكرس كل جهودى لتخفيف آلام الناس ، سأطلق لهم حرياتهم ، وسأؤمنهم على أرواحهم وأموالهم ، وسأبطل السخرة ، ولن يكون السوط والمقرعة من وسائل حكمى .

فقالت السيدة عائشة فى ثقة :

ـــ لو اقتربت من شعبك خطوة اقترب منك ذراعا ، ولو مددت له يدا مد لك آلاف الأيدى ، فهو شعب وفى لا يجحد الجميل .

ودخل حاجب فى ثياب مزركشة ، طويل القامة أسمر الوجه ، وقال :

ـــ جاء السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده .

فقال الأمير توفيق وقد أشرق وجهه سرورا :

ـــ مرحبا بالسيدين .

وخرجت السيدة عائشة ، وظل البخور يسمو فى الغرفة ويدور فى حلقات . وأقبل السيدان ، فلما دخلا عليه قام يستقبلهما ويرحب بهما ، وجلسوا يتجاذبون أطراف الحديث ، السيد جمال الدين الأفغانى يزين للأمير حكم الشورى ويبين له مساوئ الاستبداد ، والأمير توفيق يصغى إليه فى اهتمام . وما انتهى السيد جمال الدين من حديثه حتى قال توفيق :

ـــ متى وصلت إلى العرش فسوف لا أحيد شعرة عن جادة الحكم الدستورى .

وأثلج صدر جمال الدين فقد وعده ولى العهد بإدخال الحكم النيابى فى البلاد ، فلن يكون حاكما مستبدا كأبيه ، بل سيترك للشعب أن يحكم نفسه

بنفسه عن طريق نوابه الذين سينتخبهم ليمثلوه .

وانتهت المقابلة ، وقال الأمير توفيق لجمال الدين وهو يصافحه :

ـــ إنك موضع أملي فى مصر أيها السيد .

ـــ وخرج السيد والشيخ محمد عبده من قصر القبة ، وانطلقا فى الظلام بين الحقول الخضر المترامية ، وراحا يتناجيان ويعلقان أكبر الآمال على الأمير توفيق . وسارت بهما العربة إلى الأزبكية ، وهبطا منها ودلفا إلى قهـوة « البوسطة » حيث اعتاد السيد جمال الدين أن يقابل مريديه بها كل ليلة .

وأقبل محمود سامى البارودي وعبد السلام بك المويلحى وعلى بك مظهر وعبد الله نديم وجمهرة من المثقفين ، وراح السيد يتحدث وهم يصغون ، كان ينفث فيهم روح الثورة ، ويؤجج فى صدورهم نار الحقد على حكومتهم الاستبدادية ، ويقنعهم أن الإصلاح لن يتم إلا على يد توفيق باشا .

كان السيد جمال الدين الأفغانى يثق بولى العهد ويحسبه كفؤا للنهوض بأعباء أمة تتردى فى مهاوى السقوط ، وما كان ولى العهد يثق بنفسه ، فقد كان توفيق يرحب بالإصلاح ويحب أن تنال البلاد الخير على يديه ، ولكنه كان ضعيفا يخضع لأية إرادة أقوى من إرادته ، وياويل مصر يوم يلعب بتوفيق أصحاب الإرادات القوية !.

١٤

هزت خديجة كتفيها وقلبت كفيها فى عجب ، ولاح فى نصف وجهها الذى أضاءته أنوار الذبالة الخافتة المرتعشة حركة امتعاض مشوبة بدهش ، فقالت لها سعدية :

ــ ماذا جرى ياخالتى ؟.

فقالت خديجة وهى تمصمص شفتيها :

ــ سمعت طرقا على الباب فذهبت وفتحته ، فألفيت شيخا كبيرا ما أن رآنى حتى انفرج وجهه المتجعد ، واهتزت لحيته البيضاء ، وانفرج فمه عن الخراب ، وقال فى همس : مساء النور ، أين الشيخ إبراهيم ؟ اللهم اجعلها ليلة مباركة ، وظل يحدج إلى بعينيه كالصقر ، فقدته إلى المصطبة .

فقال حامد فى حدة :

ــ ماذا جاء يفعل ؟.

فقالت خديجة :

ــ لا أدرى .

وقالت سعدية فى خبث :

ــ ما طرق غريب بابنا لا ليخطبك .

فقالت خديجة فى فزع ، وقد نسيت أنها قد أشرفت على الخمسين :

ــ خطبة عزرائيل .

فقالت سعدية وهى تضحك :

ـ والله ما جاء إلا ليتزوجك .

فدنت منها خديجة وهمست :

ـ هل كلمك عنى ؟.

ـ أبدا ، ولكن قلبى يقول ذلك .

فقالت خديجة فى غضب :

ـ قطع لسان قلبك !

ونبت فى قلب خديجة قلق ، فدنت من مكان الرجلين ووقفت فى الظلام تسترق السمع ، وجاءت سعدية والتصقت بها وأرهفتا آذانهما ، وسرى إليهما صوت الرجل الغريب يقول :

ـ ماتت زوجتى منذ شهور ، ولما كنت لا أحب أن أعيش عزبا فقد فكرت فى الزواج ، ورأيت أن أخطب امرأة تعرف قدرى . عرضوا على أن أتزوج فتاة صغيرة فرفضت ، فما كان لشيخ مثلى إلا أن يتزوج امرأة قريبة من سنه ، وقيل لى إن ابنتك قد طلقت من زوجها فجئت أطلبها منك لنفسى .

ارتجفت خديجة فى موقفها غضبا ، وراحت سعدية تغالب ضحكاتها فما كانت تقدر حقيقة مشاعر خالتها ، ولكزتها بكوعها ولكن خديجة كانت تتجرع غصصها فى مرارة ، وبلغ آذانهما صوت الشيخ إبراهيم يقول :

ـ لا أستطيع أن أبت فى هذا الأمر وحدى ، سآخذ رأيها .

وإذا بخديجة تنفجر صائحة :

ـ لم أقل لكم إننى أريد أن أتزوج .

وساد سكون قلق ، وشاءت سعدية أن تقطع هذا السكون فذهبت

وأحضرت القهوة ، وهمت بأن تدخل بها على الضيف الذى جاء يخطب خالتها ، فإذا بخديجة تجذبها بعيدا وتقول لها :

ـــ والله لن يشرب قطرة ماء فى بيتنا .

وضحكت سعدية على الرغم منها وقالت :

ـــ كيف ترفضين رجلا جاء إليك يطلب منك أن تعيشى فى ظله ؟.

فقالت خديجة فى حدة :

ـــ لو كان له ظل ما رفضته ، إنه كالشجرة الجافة التى سقطت عنها أوراقها فأصبحت عارية لا ظل لها ولا ثمرة .

فقالت سعدية فى صدق :

ـــ إنه رجل يعرف قدرك ، يطلبك لنفسك ولا يطمع فى شىء .

فقالت خديجة لتقنع نفسها :

ـــ ليته كان يطمع ! ماذا يستطيع هذا الشيخ أن يعطينى ؟ اللقمة ؟ إننى آكلها هنا ، أريد رجلا يغمرنى بحنانه وإن تقاضى منى الثمن .

فقالت سعدية وهى تبحث بعينيها فى المكان عن حامد :

ـــ والله يا خالتى أمرك عجيب .

ـــ لى عقلى ولكم عقولكم .

وسمع صوت الباب وهو يغلق ، فقالت خديجة فى راحة :

ـــ ذهب اللهم لا ترجعه .

وأقبل الشيخ إبراهيم وحده ، وهم بأن يتكلم ولكن سعدية قالت :

ـــ أين حامد ؟.

فقالت خديجة :

ـ صعد إلى سطح الدار .

فانطلقت سعدية إلى السلم الخشبى وصعدت فيه ، وتركت الأب والابنة يتعاتبان ويتناجيان .

رأت حامد جالسا فى الظلام وقد شرد ببصره إلى الفضاء حتى غاب عن كل ما حوله ، ودنت منه وراحت ترقبه ، فإذا به غارق فى وجومه ، فهمست فى صوت متهدج :

ـ حامد ، ماذا بك .

وأفاق من شروده وقال :

ـ لا شىء .

ـ ماذا تخفى عنى ؟.

ولم يقو على أن يكتم سره فقال :

ـ إنى ذاهب غدا يا سعدية .

فقالت له وقد راح قلبها يدوى دوى الفزع :

ـ إلى أين ؟

ـ إلى الجهادية .

فاغرورقت عيناها بالدموع وقالت :

ـ أيعرف جدى ؟.

ـ لم أقل لأحد .

فقالت وهى تحس وقدة نار فى حلقها :

ـ لماذا ؟.

فأطرق برأسه ولم ينبس بكلمة ، وفاضت شجون سعدية فاندفعت تضمه

إلى صدرها وتغمغم :

ـــ حامد .. حامد .

ثم أجهشت بالبكاء .

وباتت الأسرة فى وجوم ، ولم تغمض للشيخ إبراهيم عين ، حتى إذا ما تنفس الصبح جاء شيخ البلد وبعض رجال الحكومة وأخذوا حامدا وربطوه مع أقرانه من شباب القرية ، وانطلق مع القطيع يتلفت ، فإذا بسعدية تهرول خلفه وتصيح مولولة :

ـــ حامد .. حامد..

ووقف الشيخ يرنو إليه من خلل عبراته ، يحس يدا قوية تهتصر قلبه وخنجرا يخز روحه ، فقد تجددت شجونه ، والتفت إلى خديجة وقال فى أسى عميق :

ـــ إنه ذهب يا خديجة كما ذهب أبوه ولن يعود .

وجرت دموعه تغسل لحيته البيضاء .

١٥

أطرق إسماعيل يفكر مهموما . أغرق البلاد فى الدين ، وراح يعلن للدول ذات النفوذ عن عجز المالية المصرية عن الوفاء بالدين ، ظنا منه بأنه متى ثبت عجزها عن أداء الدين و لم يبق من وجوه الوفاء ما يكفى له أعلنت الدول قطع مرتب الآستانة ، ونادت به ملكا مستقلا على مصر لا يؤدى خراجا إلى سلطان آخر ، فقد كان يسره أن يكون ملكا ولو على بلاد خربة ، ولكن طاش سهمه ، فقد شد وثاق نفسه بهذه الديون يوم شد وثاق البلاد بها .

أراد أن يتخلص من رقابة الأجانب ، ومن السير رفرز ولسن بالذات ، فدبر مؤمراته ضد نوبار فاستقال نوبار ، وبقى السير رفرز ولسن فى وزارة المالية يجرعه المرارة ويسومه الهوان ، فراح يدبر الأمر ليتخلص من ذلك الكابوس الجاثم على صدره ، يسلبه السلطة والسلطان .

وفكر فى العرائض التى يرسلها إليه أعيان المصريين يطلبون فيها أن تكون الحكومة وطنية ، وأن تكون للأمة رقابة عليها ، فلماذا لا يستغل هذه الحركة ويضرب بالأمة أعداءه وأعداء البلاد ؟ فيا طالما استغل علماء الأزهر فى تحقيق أهدافه ومآربه .

كان يغرى علماء الأزهر بالرشا والهدايا فما كانوا يقعدون عن إجابة مطالبه . كانوا يوقعون على عرائضه التى يطلب فيها رفع فوائد الدين أو خفضها ، وما ثاروا فى وجهه لأنه تعامل بالربا الذى حرمه الله ، ولكنهم

ثاروا مرة واحدة يوم دعاهم إلى ما فيه مصلحتهم ، يوم طلب منهم تأليف كتاب فى الحقوق والعقوبات موافق لحال العصر ، سهل العبارة مرتب المسائل على نحو ترتيب كتب القوانين الأوربية . فقد احتجوا بأن ذلك يخالف طريقة سلفهم الأزهرى فى كيفية التأليف ، فالواجب أن يكون الكتاب مؤلفا من متن وشروح وحاشية ، وعند زيادة البيان والتحقيق تضاف إليه التقارير ، فهذه هى سنة المشايخ المألوفة . أما تأليف كتاب سهل على كيفية كتب القوانين ، فمن البدع الهدامة لتلك السُنة التى جرى عليها السلف الصالح . فما أيسر أن يقوض المشايخ الجامدون ركنا من أركان الدين ، وما أصعب أن يخدشوا طريقة من سبقهم فى التأليف من السلف الأزهرى العظيم !.

واستراح اسماعيل إلى فكرة الاستعانة بشعبه فى التخلص من الوزارة الأوربية ، فراح يشجع الوطنيين فى مطالبهم ، فاجتمع أعيان البلاد فى بيت البكرى ، وكتبوا مذكرة وقعها منهم سبعون من العلماء فيهم شيخ الإسلام وبطريرك الأقباط وحاخام اليهود ، وستون من الباشوات وستون من البكوات وأربعون من الأعيان وعدد عظيم من ضباط الجيش ، طلبوا فيها عزل السير رفرز ولسن وتأليف وزارة وطنية ، وإيجاد مجلس نواب تكون له سلطة المراقبة على أعمال الحكومة ، وتكون الوزارة مسئولة أمامه .

ووجد إسماعيل الفرصة مهيأة ليضرب السير رفرز ولسن الضربة القاضية ، فاستدعى قناصل الدول وطلب منهم أن يبلغوا حكوماتهم أنه لم يبق فى وسعه أمام هياج الرأى العام فى مصر إلا أن يحكم بوزارة وطنية مسئولة أمام مجلس نواب ، وأن ابنه توفيق باشا استقال من رياسة الوزارة وأن شريف باشا عين خلفا له ، وقدم للقناصل فى الوقت نفسه مشروعا ماليا جديدا بدفع

الديون فى خمسة وستين عاما ، وتخفيض الفائدة ، وأعلن أن المراقبة الثنائية التى كانت قائمة قبل تأليف الوزارة الأوروبية تعود إلى ما كانت عليه .

علم السير رفرز ولسن بذلك فثار ، واحتج على إسماعيل واتهمه بأنه هو الذى دبر هذه الحركة ليتخلص من تعهداته ، ولكن إسماعيل لم يلتفت إلى احتجاجاته ، بل دبر مؤامرة ليجهز عليه ، فبينما كان السير رفرز ولسن وزوجته يسيران فى الإسكندرية إذ هجم عليهما الجمهور وأهان السير إهانة بالغة ، فرفع شكواه لوزارة الخارجية البريطانية فضنت عليه بالتأييد ونصحت له بالاستقالة ، فاستقال وسافر إلى أوربا حاقدا ، لينضم إلى نوبار يكيد لإسماعيل فى الظلام لعله ينتقم لما ناله .

وتنفس إسماعيل الصعداء يوم تخلص من غريمه ، فلم يشعر فى غمرة سروره أنه أحدث فى الناس شعورا بقوة لم يكونوا يعرفونها من قبل ، فقد أيقنوا أن الحاكم القوى السلطان قد صار فى حاجة إليهم ، ولا قوام لأمره إلا بالاعتماد عليهم ، فزادهم ذلك ولوعا بما كانوا يميلون إليه من وجوب اشتراكهم فى أعمال الحكومة ، تفتحت عيونهم على حقيقة ما كان يدعوهم إليه السيد جمال الدين الأفغانى ، إنهم يستطيعون أن يدلوا برأيهم فى إدارة شئون بلادهم إذا نفضوا عنهم غبار الذل والخنوع .

ولم تدم راحة إسماعيل طويلا ، فقد راحت الحوادث تعدو سراعا .

خفض إسماعيل فوائد الدين ففزع السير رفرز ولسن إلى بيت روتشلد يحرضه على الاحتجاج على مصر فهو ربيب ذلك البيت ، وراح يؤلب إنجلترا وفرنسا عليها لعله ينتقم من إسماعيل الذى ألقى به خارج الوزارة ، ونجح فى تأليبهما ، ولكنهما لم تحتجا على الخديو لأنهما كانتا تخشيان معارضة ألمانيا ،

فهرع السير رفرز ولسن إلى بسمرك وظل يحاوره حتى حصل على موافقته ، فأرسلت إنجلترا وفرنسا احتجاجا قالتا فيه إنهما لا تعترفان لأمر إسماعيل بأية قيمة قانونية .

وأسقط فى يد إسماعيل ، لمح العاصفة تتجمع فأخذه الرعب وحاول أن يتقيها فأوحى إلى شريف باشا رئيس وزرائه أن يبلغ الدول أن أمر تخفيض الديون قد ألغى ، فأعرضت الدول عنه ، فقد بيتت إنجلترا وفرنسا أمرا .

بعثت الحكومة الفرنسية إلى قنصلها العام فى القاهرة برقية قالت فيها « إننا متفقون اليوم مع الحكومة البريطانية على أن ننصح للخديو بأن ينزل عن العرش وأن يغادر مصر ، فإن أطاع هذا النصح فسنعمل معا لترتيب معاش له ، ولبقاء العرش لابنه توفيق » .

رأى جمال الدين الأفغانى الفرصة سانحة ليخلص البلاد من إسماعيل وشروره ، فذهب وبعض أصدقائه من أعيان المصريين إلى شريف باشا وطلبوا منه أن يقنع الخديو بوجوب التنازل عن الخديوية ، وقالوا له إن رفض طلب الدولتين لا يفيد ، وأنهما لابد أن تنالا ما تطلبان عاجلا أو آجلا ، والفكر فى الحرب رأى طائش ، فإن الناس عموما فى انحراف عنه ، فإذا وقعت الواقعة ودارت رحى المعركة خذله الجيش فى أول واقعة .

وذهب وفد المصريين مع السيد جمال الدين الأفغانى إلى وكيل دولة فرنسا ، وقالوا له :

ـــ إن فى مصر حزبا وطنيا يطلب الإصلاح ويسعى إليه ، وأن الإصلاح فى مصر لا يتم إلا على يد ولى العهد توفيق باشا .

وكشف السيد جمال الدين الأفغانى الغطاء ، وراح يعلن للناس جهرا رأيه

فى إسماعيل ، وينبه الأفكار ويبين للمصريين أن سلطة سلطانهم ليست إلهية تعلو فوق البشر ، وراحت الصحف التى كان يغذيها السيد تتكلم صراحة عن الحزب الحر .

أقلقت تهديدات إنجلترا وفرنسا الخديو ، فأطرق يفكر فيما يفعله ليتخلص مما هو فيه وينجو بعرشه ، ولكن الدولتين كانتا قد دبرتا كل شيء ، فأرسلت فرنسا برقية قالت فيها : « إذا رفض الخديو أن يصغى لنصحنا فلن نتردد فى الالتجاء إلى الدولة صاحبة السيادة على مصر ، لنطلب من السلطان عزل هذا الأمير الذى أنكر واجباته إنكارا خطيرا وتعيين خلف له » .

علم السلطان عبد الحميد أن إنجلترا وفرنسا لاجئتان إليه لتطلبا منه عزل إسماعيل ، وأنه لن يرفض طلبهما ، وأنه من الأكرم له أن يسبقهما إلى خلعه ليوهم نفسه أنه صاحب الكلمة العليا ، فأرسل إلى إسماعيل قبل أن تطلب الدولتان منه شيئا برقية بعزله ، وبعث ببرقية أخرى إلى توفيق بتوليته مكان أبيه ، وشمخ الباب العالى بأنفه فقد ظهر بمظهر صاحب السلطة !.

وعم البلاد سرور عظيم ، وراح الحزب الوطنى يهنيء بعضه بعضا ، تخلصت البلاد من الطاغية دون إراقة دماء ، وجاء توفيق الذى يأملون الخير على يديه ، وانهالت على الخديو الجديد الذى تعلقت به الآمال برقيات التهانى ، وجاءت برقية من « بيت روتشيلد » مفعمة بأطيب التمنيات !

١٦

كانت السيدة عائشة (الكوديا) متهللة الوجه ، منشرحة الصدر ، تستشعر غبطة تملأ نفسها ، فكانت تغدو وتروح خفيفة نشيطة ، وتتمتم ببعض الألفاظ الغامضة فى حرارة ، فقد كانت ترقى الخديو توفيق فى قصر عابدين وتبخر ثيابه يوم خروجه إلى قصر الجوهرة ، لينادى به خديويا على مصر ..

ورنت إلى توفيق رنوة كلها حب ، وقالت فى صدق :

ـــ هذه أسعد لحظة فى حياتى ، تحققت فيها كل آمالى .

فقال توفيق فى اهتمام :

ـــ ماذا يقول الناس عنى ؟.

فقالت السيدة عائشة فى حرارة :

ـــ الناس مستبشرون بكم ، لا يذكرونكم إلا بكل خير ، عقدواعليكم كل آمالهم .

وارتدى توفيق ثياب التشريفة ، وهبط من القصر يتألق قد ازدان صدره بالنياشين ، وركب عربته فأطلقت المدافع ، وارتفعت أصوات الشعب تهتف بحياته ، فقد كان الناس يحسبون أنهم مقبلون على عصر حرية تتحقق فيه رغباتهم .

انطلقت كوكبة من الفرسان خلفها عربة الخديو ، وقد جلس توفيق يرد على شعبه الذى هزه الفرح تحيته ، وجلس إلى يساره شقيقه الأمير حسين باشا ،

كامل ، وأمامه أخوه الأصغر حسن باشا ، وبجانبه رئيس النظار محمد شريف باشا ، وقد اصطف الجند على جانبى الطريق الذى راحت الأعلام التركية تخفق فيه ، فما كان للمصريين علم إلا العلم الأحمر يتوسطه الهلال الأبيض والنجمة .

وبلغ الموكب القلعة بين هتافات الشعب المدوية ، فدلف توفيق إلى القاعة الكبرى فى قصر الجوهرة ، وجلس على يساره شقيقاه والنظار ، وأقبل نقيب الأشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية وقاضى القضاة وشيخ الجامع الأزهر يزجون إليه التهنئة ، ويبدون البشر ويظهرون الفرح والغبطة . كانوا على استعداد ليمشوا بالتهنئة لأى رجل يتربع فى دست الحكم ، فما يهمهم من الأمر إلا أن يكونوا موضع الرضا ..

ودخل عليه قناصل الدول ، وتقدم منه أكبرهم سنا وراح يهنئه ، فرد عليه شاكرا ، ثم غصت القاعة الكبرى بالأعيان والتجار وكبار الموظفين وأفعمت بآيات النفاق والملق والرياء ، وانتهت المراسيم فعاد الخديو الجديد إلى قصر عابدين ، بين قصف المدافع والهتافات المنطلقة من الحناجر لتبلغ عنان السماء .

وما كادت القاهرة تستريح حتى تأهبت لموكب آخر ، فقد اصطف الجند على جانبى الطريق من قصر عابدين إلى محطة مصر ، وأسرع الناس فرحين ليروا الخديو المخلوع الذى جرعهم كؤوس الهوان ، وهو فى طريقه ليغادر البلاد .

وانسابت العربة وقد جلس فيها إسماعيل وفى وجهه ذل وأسى ، وإلى يساره توفيق ، وانطلق الموكب يحف به الفرسان والناس ينظرون مذهولين كأنما

لا يصدقون أن ذلك الكابوس الذى كان يجثم على صدورهم كالجبال قد انزاح عنهم إلى غير رجعة .

ودخل إسماعيل المحطة ، وتوفيق يسير إلى جواره فى وجهه حزن عميق ، وحانت ساعة الوداع فغامت عينا توفيق بالدموع ، وتعانق الأب والابن ، ثم قال إسماعيل :

ـــ لقد اقتضت إرادة سلطاننا المعظم أن تكون يا أعز البنين خديو مصر ، فأوصيك بإخوتك وسائر الآل برا ، واعلم أنى مسافر وبودى لو استطعت قبل ذلك أن أزيل بعض المصاعب التى أخاف أن توجب لك الارتباك ، على أنى واثق بحزمك وعزمك ، فاتبع رأى ذوى شوراك ، وكن أسعد حالا من أبيك .

ووصل القطار إلى الإسكندرية ، فانطلق إسماعيل وآل بيته إلى الميناء وراح يدير عينيه فى المكان ويغالب دموعه ، ولكن حزنه غلبه فأجهش بالبكاء ، فبكى الواقفون ، واشتد النحيب ساعة الوداع ، وتقدم إسماعيل مطرق الرأس إلى « المحروسة » ، وبدأت تبتعد عن الشاطىء شيئا فشيئا لتفصل بين حاضر الخديو المعزول وماضيه ، وألقى على البلد الذى رماه بتهوره بين براثـــن الأجانب الطامعين نظرة وداع ، وأخذ الفاصل بينه وبينه يتسع ويتسع ، يحس غصة فى حلقه ، ووقدة نار تستشرى فى صدره وأرهفت حواسه كلها ، إلا ضميره فظل غارقا فى سباته لم يهب ليخزه على أنه لم يكتف بما جره على البلاد من مآسى وآلام ، بل حمل معه ثلاثة عشر مليونا من الجنيهات ، جمعها من عرق الفلاحين بعد أن ألهب ظهورهم بالسياط .

وانطلقت « المحروسة » إلى نابولى تحمل طاغية ذل ، وملكا أسس ملكه على

الظلم والجور ، فتداعى البنيان ، وابتلع الأفق فى جوفه المحروسة واختفى إسماعيل عن العيون ، ولكن ظلت آثاره الدامية فى جسم الأمة ليس لها برء .

١٧

جلسوا يتسامرون فى ضوء المصباح الخافت ، الشيخ إبراهيم مطرقا يصغى دون أن تتحرك شفتاه بكلمة ، وعمار يتدفق فى الحديث يحس زهوا ، وخديجة ترنو إلى عمار فى وله تكاد تلتهمه بعينيها ، وسعدية تتململ فى ضيق وترغم نفسها على البقاء حتى لاتغضب خالتها المفتونة بزوجها الجديد .

طلقت خديجة من علوان بعد أن أبرأت ذمته مما لها قبله ، فانطلقت إلى الأسواق تنقب عن زوج جديد ، ولمحت عمارا وهو عائد إلى القرية بعد أن سرح من الجيش ، فألفته شابا مفتول الساعدين بارز الصدر تنم ملامح وجهه على القوة والفتوة ، فاشتهت أن تعيش فى ظله ، فليلة معه خير من عمر طويل فارغ .

ودنت منه وحادثته وسألته عن حاله ، ففهمت منه أنه يبحث عن عمل فانشرح صدرها ورقص قلبها طربا ، وأسرعت تعرض عليه أن يعمل عندهم ، فقد ذهب حامد إلى الجيش وأصبحوا فى حاجة إلى من يقوم بعمله و لم يفزعها أجره ، فإذا تعذر على أبيها الشيخ أن يدفع له ما يتقاضاه أمثاله فهى على استعداد أن تدفع له من عندها وترضيه .

وعمل عمار فى حقل الشيخ إبراهيم ، فراحت خديجة تحيطه برعايتها تحمل

إليه ما تتفنن فى صنعه من المأكولات ، وتقوم عنه ببعض عمله ، فأفعم بالرضا ، وما أن لوحت له خديجة بالزواج حتى استولت عليه الفكرة ، فسيعيش بعد قسوة الجندية وعجرفة الضباط الجراكسة سيدا مدللا منعما .

وفى ذات مساء طرق دار الشيخ ودخل يطلب خديجة ، وما خرج من عنده إلا بعد قراءة الفاتحة ، وافقت خديجة على أن تعيش فى ظله وأقنعت أباها بالموافقة ، وغمرها السرور فأقبلت على سعدية تبثها أمانيها وآمالها .

وتم الزواج ولم تنتقل خديجة إلى بيت عمار فما كان له بيت ، بل انتقل عمار إلى بيت الشيخ ، وتنافس الجميع فى إرضائه إكراما لخديجة ، فعاش فى الدار ملكا يستهلك ولا ينتج ، وينهى ويأمر ، له كل الحقوق وليس عليه واجبات يؤديها إلا واجباته قبل المرأة التى تتشبث بأذيال الشباب وقد فر منها .

صمت عمار قليلا وشرد بصره ، ثم ضحك ضحكة هستيرية ، فقالت له خديجة فى اهتمام :

ــ ما الذى أضحكك ؟.

ــ تذكرت كيف نجوت وحدى من الموت وقد أبيدت الفرقة كلها .

ــ كيف ؟.

واعتدل عمار فى جلسته ، وأصلح جلبابه الأزرق وتأهب ليقص قصته ، كان يستشعر لذة كلما قص نبأ مغامراته فى الجندية ، وقال :

ــ سافرنا لحرب الحبشة ، وقد خرجت فى الفرقة الأولى التى كان يقودها اللواء عثمان رفقى باشا ، إنه رجل جركسى أحمر الوجه منفوخ كالديك الرومى ، لا يتكلم إلا شخطا ونطرا ، فكنا إذا عسكرنا فى الليل لا نجد موضوعا نتحدث عنه إلا عثمان باشا فكنا نقلده ونتندر بحوادثه ، وأخذنا نجتاز

مجارى االسيل ونتسلق الجبال حتى بلغنا حصنا عسكرنا فيه . مكثنا أربعين يوما لا نعمل شيئا ولا نتدرب على شيء ، وظل الجنرال لورنج فى خيمته وكان رئيس أركان حرب القوات المصرية ، إنه أمريكى كل مؤهلاته أنه كان رئيسا لفرقة من فرق المتطوعين فى الحرب الأمريكية .

إذا أردت أن تكون شيئا مذكورا فى الجيش المصرى فلا ترتكب أكبر حماقة وتولد من أبوين مصريين ، بل عليك أن تختار أباك من الأمريكان أو الفرنسيين أو من السادة الأتراك ، إنها وصمة عار أن تكون مصريا فى جيش مصر .

كان يتردد على الجنرال لورنج كل يوم أحد القسس الفرنسيين . فكانا يقضيان الوقت فى مسامرة ، حتى إذا وفد الليل انصرف القسيس من حيث أتى وأوقدنا النار نصطلى لهيبها من شدة البرد .

وفى ذات صباح أمرنا الجنرال لورنج بالخروج للقتال ، فخرجنا وجعلنا الجبل وراءنا ، وكان أمامنا خور عميق لا ماء فيه ، فكان حاجزا بيننا وبين الأحباش ، وأطلقت مدافع الأحباش فخلع أركان الحرب الأوروبيون والأمريكيون طرابيشهم ولبسوا قبعاتهم ، ثم ربطوا فى أعناقهم مناديل بيضاء ، وبدأنا فى إطلاق المدافع فإذا بأشجار تتقدم نحونا، وإذا بنار حامية تطلق علينا من كل جانب ، وظهر بيننا الأحباش بسيوفهم ، فدارت معركة رهيبة بالسلاح الأبيض .

وتصبب العرق منى ، فربطت حول عنقى منديلا أبيض ، وألفيت قبعة ملقاة على الأرض فوضعتها على رأسى .

وسقط رجال المدفعية المصرية صرعى السيوف الحبشية ، وانهزمنا وسلمنا ظهورنا للعدو ، وراحت حراب الأحباش تعمل فينا ، ومن العجب أنه لم ينج

إلا من كان على رأسه قبعة أو فى عنقه منديل أبيض !.

فقال الشيخ إبراهيم وهو يهز رأسه أسفا :

ـــ هذا ليس بعجيب ، هذا هو الأمر الطبيعى .

فقال له عمار فى دهش :

ـــ كيف ؟.

فقال الشيخ إبراهيم فى مرارة .

ـــ خان الجنرال لورنج الجيش المصرى ، وكان القسيس سفيرا بينه وبين النجاشى فلما تم نسج المؤامرة اتفقا على أن يرتدى الأوربيون والأمريكيون قبعاتهم ويربطوا منديلا أبيض فى أعناقهم ليتميزوا عن المصريين ، فيأمنوا على أنفسهم عند اختلاط الجيشين .

فقال عمار فى صوت خافت :

ـــ نجوت مصادفة ! .

فقالت خديجة حالمة :

ـــ أبقاك الله لى .

فإذا بصوت يرن فى جوف سعدية وإن لم تتحرك شفتاها ، يقول :

ـــ عمر الشقى بقى .

ولم تطق صبرا فقامت وصعدت فى السلم الخشبى إلى سطح الدار ، وتمددت وقد شردت ببصرها تنظر إلى القمر ، ومررت يدها على عنقها فلمست العقد المتدلى على نحرها ، فإذا بصورة يوسف تحتل ذهنها ، رأته وهو يقدم إليها العقد وقد تألقت عيناه ببريق أحست به يضىء ظلمات نفسها ، وانزاحت صورة يوسف ، وإذا بها ترى طيف حامد إلى جوارها يرنو إلى

القمر ويقول :

ـــ ما ألذ أن يكون المرء محبوبا ، إنني أشتهى أن أذهب مع من تحبنى إلى أى مكان ولو إلى قاع البحر .

وأحست حنانا يتدفق فى صدرها ، ومشاعر لذيذة تمور فى جوفها ، فغمغمت فى صوت رقيق مس أذنيها عذبا ، زاد وجدها وأيقظ لهفتها :

ـــ ليتنى ذهبت معك !.

١٨

خف السيد جمال الدين الأفغانى إلى الخديو توفيق يسأله أن ينجز وعده ، وأن يشرك شعبه فى حكم البلاد ، فأظهر توفيق صادقا ميله إلى منح شعبه الدستور الذى يبتغيه ، فقد كان مسحورا بحديث السيد الجذاب ، فمال إلى مشايعة الإحساس العام ، وأصدر أمره فى ثورة تحمسه إلى وزيره شريف باشا ، جاء فيها : « إن العناية الإلهية سلمت زمام الحكومة إلى يدنا فضلا منه وإحسانا ، ولعلمى أن الحكومة الخديوية يلزم أن تكون شورية ، ونظارها مسئولين ، فإنى اتخذت من هذه القاعدة للحكومة مسلكا لا تحول عنه ، فعلينا تأييد شورى النواب وتوسيع قوانينها ، ولكى يكون لها الاقتدار فى تنقيح القوانين ، وتصحيح الموازين » .

وذاع الأمر الكريم فغمرت الناس موجة من السرور وانتعشت الآمال ، فقد كان هذا الأمر فاتحة خير فى العهد الجديد ، وما جاء الليل وذهب السيد جمال الدين إلى قهوة « البوسطة » يتوكأ على عصاه كعادته ، حتى هرع إليه أصدقاؤه ومريدوه يهنئونه ويشدون على يده ، فقد بدأت تعاليمه التى كان يبثها فى الصحف تزدهر ويدنو قطافها .

وجلس السيد يحدث أصدقاءه فأحس الناس قلوبهم تتفتح للخديو الجديد وخاضوا فى أحاديث الإصلاح مستبشرين ، ولو دروا بما يجرى فى قصر الخديو لانقبضت صدورهم ولانقلبت أفراحهم أتراحا ، فقد كان قنصلا فرنسا

وإنجلترا يوسوسان لتوفيق ويحرضانه على أن ينكث عهده ، وما كان الخديو صاحب شخصية قوية تستطيع أن تقف فى وجه الزوابع والأعاصير ، ولكنه كان صاحب شخصية تخضع دائما لأية شخصية أقوى منها وتنقاد لها ولو إلى الهاوية ، فجعل يصغى إلى مستر فيفيان وزميله وقد لاح فى وجهه أثر حديثهما الحبيب الذى كان يقطر سما .

كانا يتمتعان بالسلطة المطلقة فى الدولة ، فلما علما بأمر توفيق الذى يتعهد فيه للأمة بمنحها دستورها أحسا الخطر الذى يتهددهما ، سينازعهما مجلس النواب سلطتهما ، فهرعا إلى توفيق يثنيانه عن عزمه ويلوحان له بالخطر الذى يهدد عرشه إذا سار فى هذا الطريق الخطير !.

قال له مستر فيفيان :

ـــ سيعوق مجلس النواب حل المشاكل الموقوفة لتشتت الآراء وإفناء الوقت فى المداولات ، إن هذا النظام لايصلح فى أمة تقاسى من الارتباكات المالية .

فقال توفيق فى صوت خافت :

ـــ ولكن السيد جمال الدين الأفغانى قال لى : لن يكون إصلاح ما لم يشترك الشعب فى الحكم .

فقال مستر فيفيان فى خبث :

ـــ إن جمال الدين رجل ثائر ، فما ذهب إلى مكان إلا أشعل فيه نار الثورة ، إنه يعمل على إبدال الحكومة بجمهورية شورية لأن نفسه تحدثه بتولى زعامتها .

وأحس توفيق قلقا ينبت فى جوفه ، ونار الحقد تستشرى فى صدره ، وراح القنصلان ينفخان فى جمرة غضبه ويغيرانه على أصدقائه ، وما غادراه حتى كان قد وطن النفس على رفض مشروع الإصلاح لينجو بعرشه من المؤامرات

التى تحاك له !

وأقبل شريف باشا يعرض على الخديو ما وضعه الوزراء فى مشروعهم عرضا غير رسمى ، فإذا بتوفيق يبدى النفور من المشروع ، وإذا به يميل إلى غير ما أظهر لشعبه ، فخرج شريف باشا من عنده مدهوشا لا يدرى سبب ذلك التبدل الطارىء .

وما انقضى يومان على صدور ذلك الأمر الذى قال فيه توفيق إنه اتخذ نظاما لحكومته لا يتحول عنه ، حتى دعا حضرات النظار ، فلما وافوه فى الليل ودار الحديث حول مشروع الإصلاح قال شريف باشا :

ــ إننا نرى يا مولانا تنفيذ لائحة الإصلاح بعد أن وعدتم الشعب بمنحه حق محاسبة الوزراء .

ــ إن هذا الإصلاح سابق وقته .

ولم يتزحزح توفيق عن موقفه ، فقدم الوزراء استعفاءهم من الوزارة فقبلها الخديو ، وبذلت الجهود لإخفاء حقيقة سبب الاستعفاء حتى لا تشعر به الأنفس الطامحة إلى الإصلاح ، فتؤلب الناس على الخديو الذى نكث بعهده ولم يكد يجف المداد الذى سطره به .

تخلص الخديو من شريف ووأد فكرة منح الشعب حق محاسبة وزرائه ، ولكن لم تهدأ مخاوفه ، وكيف تهدأ وصاحب فكرة الحكومة الشورية يصول ويجول ويكتب المقالات فى الصحف التى أنشأها ، يبذر فى الرءوس أفكار الثورة ، ويحض الجماهير على تحطيم القيود التماسا للحرية . انه لن يستريح حتى يتخلص من جمال الدين ويخلو له وجه البلاد .

تسربت الأنباء تخوض فى حقيقة أسباب استعفاء الوزارة ، وراح الناس

يتهامسون ويقولون إن توفيق رفض مشروع الإصلاح الذى تقدم به شريف ، وضاعت الجهود التى بذلت لإخفاء حقيقة سبب الاستعفاء سدى ، فما أصعب أن نحجب عن الناس الحقيقة !.

خرج السيد جمال الدين من داره ، فإذا بالصبيان يطوفون بالطرقات وفى أيديهم المصابيح الملونة ينشدون أناشيد رمضان ، فرنا إليهم وابتسم ، ثم انطلق يتوكأ على عصاه ميمما شطر قهوة « البوسطة » ليجتمع بأصدقائه ومريديه .

سار فى حى الأزبكية فإذا به غارق فى النور ، والناس يموجون فيه ويتلاطمون ، كانوا يحتفلون برمضان فى دور اللهو فيسهرون فى مرح وسرور حتى السحور ، فألقى على الجموع نظرة عابرة ، ثم انساب حتى إذا بلغ منعطفا عرج عليه وسار فيه خطوات بالقرب من مبنى دار البريد ، فرأى الشيخ محمد عبده وأصدقاءه فى قهوة « البوسطة » يرصدون قدومه فأسرع الخطا ، ولما بلغهم أقبل عليهم يحييهم فى بشاشة ، ثم جلس يحدثهم وقد تعلقت به العيون ، وقال :

— علمت أن قنصل فرنسا وقنصل إنجلترا قابلا الخديو قبل أن يرفض مشروع الإصلاح ، وأنه ما رفض المشروع إلا استجابة لنصحهما .

فقال قائل :

— إنى أعجب كيف يتخذ من أعدائه مستشاريه ؟!

وارتفع صوت يقول :

— قلت لكم إن توفيقا ضعيف لن يعصى للقناصل أمرا .

فقال جمال الدين :

— يحز فى نفسى أن يصغى إلى الإنجليز .

ودار الحديث حول توفيق ونكوصه على عقبيه بعد أن أقدم ، وإذعانه للأجانب وإن كان فى هذا الإذعان إغضاب للوطنيين ، وامتدت السهرة حتى إذا ما اقترب ميعاد السحور انفرط عقد الاجتماع ، فذهب كل فى طريق .

انصرف جمال الدين وخادمه المخلص الوفى أبو تراب ، ذلك الرجل الأمى الذى أصبح فيلسوفا من مخالطة الحكيم العظيم ، وما ابتعد عن الأصدقاء قليلا حتى انقض عليهما رجال الشرطة واقتادوهما إلى الضبطية وهما فى عجب لا يدريان لذلك الغدر سببا .

أطرق جمال الدين يفكر فارتسمت على شفتيه بسمة استخفاف ، كان يقول إنه لن يكون إصلاح إلا على يد الأمير توفيق ، وها هو ذا يتربع فى دست الحكم ويأمر بإلقاء القبض عليه ، هو الذى هيأ الأذهان لاستقبال توفيق بالهتاف والترحيب .

إنها ذرية بعضها من بعض ، فما توفيق إلا ابن إسماعيل ، فإذا كان إسماعيل طاغية ظالما ، فتوفيق خائر القوى يخضع لأية إرادة أقوى من إرادته ، ثم يسعى بعد ذلك فى الظلام يحاول أن ينفذ ما يدور فى نفسه من أفكار .

ودخل رجال الشرطة عليه فلم يحفل بهم ، وأخذوا يفتشونه فلم يجدوا معه إلا ثلاثة جنيهات عثمانية وبعض قروش من الفضة فأخذوها ، وتركوه وحده ولكنه لم يشعر بوحشة ، فقد كان يمضى الوقت مع عقله الكبير !.

وتنفس الصبح ، فحمل فى عربة مقفلة انطلقت به مسرعة إلى محطة السكة الحديدية ، ونقل منها يحف به حراس شداد إلى القطار ، وانطلق القطار يحمله إلى السويس ، فانقشعت الحقيقة البغيضة لعينيه ، كان فى طريقه ليغادر البلاد .

يا طالما غادر جمال الدين بلادا ليحل فى بلاد أخرى يتخذ من أهلها أهلا

وأصدقاء ، فالعالم الإسلامى كله وطنه والمسلمون إخوانه ، ترك الأفغان وغادر الحجاز وخرج من تركيا ، ولكنه لم يحس من قبل المرارة التى يحسها اليوم ، إنه أحب مصر وأحب أهلها وبذل ما وسعه البذل ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، فإذا بأعدائه الإنجليز يوغرون صدر توفيق عليه ويزينون له طرده من البلاد .

ووصل إلى السويس وقد بلغ مسامع قنصل إيران بها نبأ نفيه ، فهرع إليه يودعه ، فألفاه وحده ليس معه متاع ، فعرض عليه مبلغا وافرا من المال يستعين به فى منفاه ، فشكر له جمال الدين ذلك وأبى أن يأخذ شيئا وقال :

ــ إن الأسد أينما ذهب لا يعدم فريسته .

وهبط جمال الدين إلى الباخرة باسر الوجه منقبض الصدر ، وألقى نظرة وداع على البلاد التى جاءها وأهلها يرون أن شئونهم ملك لحاكمهم الأعلى ، وأن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله أو خيانته وظلمه ، فإذا به يغادرها وقد علم أهلها أن الحاكم وإن وجبت طاعته ، فهو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لا يرده عن خطئه ولا يقف طغيان شهوته إلا يقظة الشعب وتمسكه بحقه .

وانطلقت الباخرة تحمل جمال الدين ، ذلك الذى كان توفيق يقول له متملقا : إنك أنت موضع أملى فى مصر أيها السيد ، وابتعدت الباخرة ، وغابت مصر عن عينى جمال الدين فقد أسدل الليل ستائره السود فحجبت عنه كل شىء ، ولكن ظلت مصر ماثلة فى ذهنه لم ينسها طرفة عين ، فقد خلف فيها أصدقاءه وأحبابه وأفكاره .

وتخايل لعينى جمال الدين طيف الشيخ محمد عبده فومض فى ذلك الظلام



فالعالم الإسلامى كله وطنه ، والمسلمون إخوانه .

الدامس ومضة الأمل ، فإذا كان قد غادر مصر فقد ترك فيها تلميذه ينفث بين الناس آراءه ، ويزيل عن عيونهم تلك الغشاوة التى حالت بينهم وبين الحقيقة الساطعة آمادا .

وضع جمال الدين كل آماله فى الشيخ محمد عبده ، ولكن توفيقا لم يدع الشيخ طليقا ، بل أمر بعزله من مدرسة دار العلوم ومدرسة الألسن وبأن يقيم فى قريته « محلة نصر » لا يغادرها .

واستيقظ الناس فلم يجدوا السيد ولا الشيخ ، فمارت الثورة فى صدورهم ، وراحوا يتهامسون أن عصر توفيق لن يختلف عن عصر سلفه فما زال الظلم يرتع فى البلاد ، فأين الأمن إذا لم تحقق التهم و لم يسأل المتهم ؟ فلا كان إصلاح إذا لم يتقرر الأمن على الأنفس وكفالة الحقوق !.

ودعا الخديو توفيق جماعة من إمعات مشايخ الأزهر إلى مائدة الإفطار فى رمضان ، وراح يتحدث مسرورا يقص خبر نفيه لجمال الدين وأمره بعزل الشيخ محمد عبده وإقامته فى قريته لا يبرحها ، فأظهر المشايخ رضاهم على ما فعله الخديو وقالوا له متملقين :

ـــ نعم ما فعلت يا مولانا ، لقد خلصت البلاد من هذين الزنديقين المارقين من الدين .

وراحوا يخوضون فى الرجلين الكريمين ويرمونهما بكل نقيصة ، إرضاء للخديو الذى كان يملأ كروشهم ، فما كان همهم فى الدنيا إلا ملء الكروش !.

١٩

إرتفع صوت المؤذن يؤذن بالمغرب ، فهرع عمار إلى القلة ورفعها وراح يصب الماء فى فمه صبا ، فمدت خديجة يدها وجذبت منه القلة وهى تقول مشفقة :

ــ كفى ، ملأت بطنك ماء .

فقالت سعدية ساخرة :

ــ لا تخافى ، لن يسد الماء شهيته عن الطعام .

فنظرت خديجة إليها فى عتاب ، ولكن سعدية لم تحفل لنظراتها ، فلو طاوعت نفسها لانفجرت فيه تؤنبه على نومه طوال النهار بحجة الصيام ، فقد ضاقت سعدية به ، فهى تكد وتتعب ويتصبب منها العرق فى سبيل ذلك الطعام الذى يلتهمه فى بساطة ، دون أن يبذل فى سبيله جهدا أو يمد يد العون للذين يجودون بقطرات من دمائهم كل يوم للحصول على هذا القوت .

انه يمضى سحابة يومه كالسادة الفارغين ممدا فى الحجرة ، أو مضطجعا فى ظل شجرة التوت ، ينظر إلى الشيخ وابنته وحفيدته وهم مكبون على عملهم فى الشمس المحرقة التى تشوى الوجوه ، فإذا خطر له أن يعاونه فيما هم فيه وضع لسانه فى سقف حلقه وأصدر من فمه صوتا يحث الثور الذى يدور فى الساقية على أن يسرع فى سيره .

عكفوا على الطعام صامتين ، وشاء عمار أن يتحدث فما كان قادرا على أن

يصمت طويلا ، فقال :

ــ الحمد لله ...

فرفعت سعدية عينيها إليه غير مصدقة ، حسبته انتهى من طعامه ولكنه كان يلوك لقمة كبيرة وهو يتحدث ، فغضت من بصرها وراحت تنظر إلى الصحاف التى أوشك ما فيها يغيب فى البطون ، وصوته يصك أذنيها دون أن تحفل به :

ــ الحمد لله ، انتهى رمضان .

فقال الشيخ إبراهيم فى هدوء :

ــ لو كنت تعرف ما فى رمضان من بركات ، لتمنيت أن تكون كل أيامك رمضان .

فقال عمار فى بساطة :

ــ لو كان لى أن أتمنى لتمنيت أن يختفى رمضان من بين الشهور .

ونهضت سعدية ، وذهبت تعد القهوة لجدها وصوت يهمس فى جوفها :

ــ لو كان لى أن أتمنى لتمنيت أن تختفى من الدار .

أصبحت سعدية تحس رغبة فى أن تهاجم عمارا وأن تناله بلسانها ، ولكنها كانت تكبح جماح نفسها إرضاء لخالتها المغرمة بذلك الثور الذى لا خير فيه ، وكانت تعجب لتعلق خديجة به فما كان فيه ما يحب ، وكانت تديم النظر إلى ظله كلما وقف فى الشمس فتجده كظل غيره من الناس ، فتتساءل فى نفسها عما يدعو خالتها إلى أن تدعى أن ظله وارف ممدود يفوق ظل كل من سبقه من الأزواج ، ولكنها ما كانت تهتدى إلى شىء فتهز كتفيها فى عدم اكتراث .

وراح الشيخ إبراهيم يحتسى قهوته ، وعمار يثرثر كعادته لا حديث له

إلا ما فعله فى الجيش وما سمعه من نوادر وحكايات ، قال :

ــ راح إسماعيل يستولى على الجمال غصبا ليجهز حملة الحبشة ، فلما دخل رجاله إحدى القرى خرج منها ثعلب يجرى فزعا ، فقابله الذئب فقال له : ما الذى جرى يا أبا الحصين ؟ قال الثعلب : إسماعيل يأخذ الجمال غصبا . فقال له الذئب : ومالك أنت وذلك ؟ فقال الثعلب : أخاف أن يستولوا على فأظل محبوسا إلى أن يثبت لهم أننى لست جملا .

وراح يقهقه فأشرق وجه خديجة بالابتسام ، وبقى الشيخ إبراهيم صامتا لا ينبس بكلمة ، وسمع طرق خفيف على الباب فأسرعت سعدية تفتح ، رأت يوسف أمامها فتدفق الدم إلى وجنتيها وشعرت بارتباك ، ثم قالت فى صوت مضطرب :

ــ تفضل .

فهمس يوسف فى وجد :

ــ كيف أنت ؟

ــ بخير .. الحمد لله .

وارتفع صوت الشيخ إبراهيم من الداخل :

ــ من الذى جاء ؟

فقالت سعدية فى صوت عال ، فيه اضطراب وفيه رنة تنم عن الفرح :

ــ يوسف حضر .

فقال الشيخ فى بشر كأنما وجد فيه الخلاص :

ــ أهلا وسهلا .. أهلا وسهلا ..

وأقبل الشيخ على الشاب مبتهجا ، وجلسا يتسامران ، قال الشيخ :

ـــ كيف حال مصر ؟

فقال يوسف فى حماسة :

ـــ بخير .

وشرد ببصره قليلا ثم قال :

ـــ ليتك تشاهد الأزبكية وهى غاصة بالشباب الذى يرتدى الثياب الأفرنكية ، تنبعث منها الأنوار القوية التى تحيل الليل نهارا . إننا قطعنا شوطا فى طريق التمدن ، لقد أخذنا بمدنية أوربا وإن هى إلا بضع سنين حتى نلحق بالركب .

فقال له الشيخ وهو يهز رأسه :

ـــ إن ما تراه اليوم فى حالة حسنة فينا هو عين التقهقر والانحطاط .

فقال يوسف فى دهش :

ـــ لماذا ؟.

ـــ إننا مقلدون فى حضارتنا للأمم الأوربية ، وهو تقليد يجرنا بطبيعته إلى الإعجاب بالأجانب والاستكانة لهم والرضا بسلطتهم علينا ، وبذلك تتحول صبغة الإسلام التى من شأنها رفع راية السلطة والتغلب إلى صبغة خمول وضعة واستئناس لحكم الأجنبى .

فقال له يوسف وهو كالمأخوذ :

ـــ وما الذى تراه لإصلاح حالنا ؟

فقال الشيخ فى حماسة :

ـــ لابد من حركة دينية ، لابد من أن نعلم الناس أن الله خلقهم أحرارا ، وأن الدين يأمرهم أن يثوروا على المستعبدين الذين استعبدوهم ، لابد من

بعث القرآن وبث تعاليمه الصحيحة بين الناس من حيث يأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم دنيا وأخرى .

فقال يوسف كالحالم :

ــ لكأننى أصغى إلى السيد جمال الدين أو الشيخ محمد عبده .

فقال الشيخ إبراهيم فى صدق :

ــ إننى من تلاميذ السيد والشيخ .

فرفت على شفتى يوسف بسمة عذبة ، فقال له الشيخ إبراهيم :

ــ هذا حق ، فما من كلمة كتباها إلا قرأتها ، أتذكر يوم قلت لى إن الشيخ محمد عبده يحارب البدع ويحارب الجمود والأخذ برواية السلف فى قبول العقائد ؟

ــ أذكر .

ــ عكفت من يومها على قراءة كل ما يكتبه السيد جمال والشيخ محمد عبده ، فصادف ما يكتبان هوى فى نفسى فصرت لهما تلميذا آخذ عنهما ، آه لو قابلتهما يوم جاورت فى الأزهر أو لو وجدت أناسا مثلهما ما غادرتهما أبدا كانت نفسى متفتحة لطلب العلم الصحيح.

فقال يوسف وهو يقلب عينيه فى وجه الشيخ إبراهيم الذى كانت تحف به لحيته البيضاء :

ــ لو بقيت فى الأزهر لكنت اليوم من كبار شيوخه .

ودق الباب دقات متتابعة فهرعت سعدية تفتحه ، ثم سمع صوتها وهى تقول فى فرح وابتهاج :

ــ حمدا لله على سلامتك ، أهلا .. أهلا أهلا . جدى .. حامد جاء ..

ودلف حامد وسعدية إلى حيث كان الشيخ إبراهيم ويوسف يتسامران فلما رأى الشيخ حفيده تألق وجهه سرورا وقام إليه يصافحه ويضمه إلى صدره ، ثم أبعده عنه قليلا ونظر إليه وهو فى حلته العسكرية قد وضع طربوشا طويلا على رأسه ودس رجليه فى حذاء أسود ضخم ، وقال فى صوت رقيق :

ـ ما شاء الله ! أصبح فى بيتى جندى باسل ، وإن كنت أمقت القتال وإراقة الدماء.

ومد حامد يده وصافح يوسف فى فتور ، ثم التفت إلى سعدية التى كانت تقفز حوله فى سرور ورفت على شفتيه بسمة وشع من عينيه بريق ، فأحس يوسف انقباضا وغام وجهه بسحابة من الكدر ، وخشى أن يفطنوا إلى ما يعتلج فى نفسه من مشاعر ، فالغيرة تنهش صدره ، فقال وهو يمد يده للشيخ :

ـ السلام عليكم .

ـ ألاتمكث قليلا ؟

ـ ذاهب لأنام حتى أستطيع أن أستيقظ مبكرا لأصلى صلاة العيد .

وانصرف يوسف ، وإذا بصوت خديجة يجلجل فى عتاب :

ـ ألا تأتى يا حامد لتسلم على عمتك ؟

وأحست سعدية كأنما هوت من السماء لترتطم بالأرض ، كانت قد نسيت عمارا فى غمرة سرورها وإذا بصوت خالتها يذكرها به ، فتطوف بها موجة من امتعاض سرعان ما تنجاب عنها ، فحامد إلى جوارها يملأ نفسها غبطة ورضا وأمنا .

وانطلق حامد إلى عمته وطفق يصافحها فى شوق ، ثم التفت إلى عمار

وصافحه وهو يقول :

ـــ مرحبا بك .

نظر إليه عمار مليا ثم قال :

ـــ إنى أذكر أول يوم عدت فيه إلى الدار بعد التحاقى بالجيش ، قابلتنى أمى بالزغاريد ، ثم أخذتنى من يدى وأجلستنى إلى جوارها وراحت تطعمنى حتى كاد بطنى ينفجر ، حسبت أننى لم أتناول طعاما منذ غادرتها .

وضحك عمار وابتسم حامد ، وتأهب عمار ليقص نوادره فى الجيش وإذا بسعدية تجذب حامدا من يده وتقول له :

ـــ تعال اخلع هذه الثياب لتستريح .

وقادته إلى غرفة جده ، فما عاد له فى البيت مكان بعد وفود عمار ، وهمت بأن تغادره ولكنه قال لها :

ـــ انتظرى يا سعدية .

وأخرج من جيب سترته منديل رأس تدلى من أطرافه خرز ملون وقدمه لها ، فأشرق وجهها وغامت عيناها بدموع الفرح وغمغمت :

ـــ كل سنة وأنت طيب .

فقال فى وجد :

ـــ وأنت طيبة يا سعدية .

وصمت قليلا ثم قال وهو يغالب خجله :

ـــ والسنة القادمة فى بيتى يا سعدية .

وتضرجت وجنتاها بحمرة الخجل ، وانسلت من الحجرة يرقص قلبها

طربا ، ولم تعد إلى حيث كان جدها وعمار وخديجة بل ذهبت إلى السلم وراحت ترقى فيه خفيفة طليقة ، وجلست فوق السطح وحدها غارقة فى الظلام ، وفى أحلام وردية بهيجة .

٢٠

استمرأ قناصل الدول التدخل فى سياسة البلاد بعد أن عركوا توفيقا فوجدوه لينا لا يرد لهم طلبا ، أشاروا إليه بضرر إشراك الشعب فى الحكم فأطاح بوزارة شريف ، وأوغروا صدره على السيد جمال الدين وأخافوه منه فنفاه من مصر ، فرأوا أن يدخلوا عليه ويقنعوه بأن الوزارة الجديدة التى وضعها تحت رياسته لا قدرة لها على تذليل المصاعب التى تواجهها ، وأن من مصلحة البلاد أن يعيد الوزراء الأجانب لتستقيم الأمور وتسير على الجادة !.

اجتمع به قنصل فرنسا وقنصل إنجلترا وقالا :

— لابد من وجود مساعدين من الوطنيين والأجانب فى الوزارة حتى تقوى على التخلص من الضيق الذى تعانيه الحكومة ..

فقال الخديو فى رقة :

— وبمن تشيران ؟

— نرى إعادة السير رفرز ولسن والمسيو دبلنيار إلى الوزارة ، فقد خبرا الإدارة المصرية ، وهما قادران على تذليل الصعاب وإعادة الثقة إلى البلاد .

انقبض صدر توفيق ومارت الثورة فى جوفه ، ولكنه ما كان بقادر على أن



وجلست فوق السطح وحدها ، غارقة فى الظلام ، وفى أحلام وردية بهيجة

يبدى ثورته ، فما كان من طبعه أن يثور فى وجوه الأقوياء فقال :

ـــ هذا ليس فى مصلحتنا ، لأنه يبلبل أفكار المصريين ويؤجج نار الثورة فى صدور الناس .

ولم يستطع أن ينفذ من ذلك إلى الرفض القاطع ، بل رأى أن يستعمل سلاح التخويف فقال :

ـــ ومع ذلك فلو صممت الدولتان على إرجاعهما وزيرين فإنى مستعد للاشتراك معهما فى العمل وقبول ما يشيران به ، وأحسبهما صديقين ، ولكنى أتبرأ من تبعة ذلك ..

وصمت قليلا وراح ينقل بصره بين الرجلين ، فقال قنصل فرنسا :

ـــ لن تستطيعوا الخروج من الضيق الحائق بالبلاد إلا بمعاونة الخبراء منا ..

فقال توفيق فى استسلام :

ـــ إننى لا أنكر حاجتنا إلى معونة الأجانب ، ولكنى أريد رجالا يشتغلون بإصلاح المالية ولا يخلطون الإدارة بالسياسة ، ويكونون فى وظائف سامية غير أنهم لا يكونون وزراء .

ـــ ما رأيكم فى إسناد الوزارة إلى نوبار باشا ؟

فانتفض توفيق وقال فى حدة لأول مرة :

ـــ لا أقبل هذا أبدا .

ـــ ألا تسمحون له بالعودة إلى مصر ؟

ـــ كيف نسمح له بذلك بعد ما كتبت عنه الجرائد تلك المقالات الضافية ، وذاع أمر دسائسه لمصر بين العامة ؟!

ـــ ما رأيكم فى إسناد الوزارة إلى رياض باشا ؟

ـــ هذا هو الصديق الحميم والصادق الأمين .

وخرج قنصلا فرنسا وإنجلترا ، وأطرق توفيق يفكر فيما جرى بينه وبينهما من حديث فاربد وجهه وضاق صدره ، فقد جاء رياض إلى الوزارة برضا إنجلترا وفرنسا ، فإذا ما شجر بينه وبينه خلاف فلن يكون من السهل الإطاحة به . فبدأت بذور البرم برياض تنبت فى نفس الخديو قبل أن يقلع من أوروبا ليعهد إليه برئاسة الوزارة !.

راح رياض باشا يعمل لينفذ الإصلاح الذى كان ينشده ، فأصدر أوامره بإلغاء السخرة ، فغضب الأغنياء ووجدوا عليه بعد أن حرمهم منافع أبدان الفلاحين بغتة ، كان صاحب النفوذ يسخر سكان منطقة نفوذه فى أراضيه فيستخدمهم بأشخاصهم وماشيتهم فى جميع مواسم الزراعة ، على شرط أن يحمل العاملون أزوادهم وأقواتهم وأدوات العمل وغذاء ماشيتهم من ديارهم إذا كانت البلاد قريبة ، فإن كانت بعيدة سمح لهم بغذاء الماشية دون غذاء الآدميين ، فجاء رياض ليحرمهم ذلك فكرهوا حكمه ، وراحوا يدسون له ، ويعملون على أن يتخلصوا منه ليعود إليهم حقهم المسلوب .

وبعث بولينو باشا رجاله المسلحين ليمنعوا فتح الترعة التى يسقى منها الأهالى ليبيع للناس الماء الذى ترفعه آلته البخارية ، فأرسل رياض بعض العساكر المصرية لفتح الترعة ، فلما فتحت أوجس بولينو وأمثاله خيفة من رياض ، فانضموا إلى الحانقين .

وأبطل رياض الضرب بالكرباج فى تحصيل الأموال ، فعجب كثير من الناس لذلك وقالوا فى إنكار :

ـــ كيف يمكن أن يحصل مال من الفلاحين بدون ضرب ؟!

وامتعض كثير من المديرين وضاقوا بهذا الأمر فقد رأوا فيه تقويضا لركن عظيم من سلطان الحكومة الذى هو سلطانهم .

وقد شارك بعض الذين ألفوا الظلم من الشعب فى هذا السخط ، فراحوا يقولون منكرين :

— وهل يفيد إلا الكرباج ؟!

واجتهد رياض فى إلغاء أمر الخديو القاضى ببقاء الشيخ محمد عبده فى قرية لا يغادرها، ولم يكتف برفع ذلك الحظر بل عين الشيخ فى الجريدة الرسمية ، فراح يضع لها لائحة تقضى بأن جميع إدارات الحكومة ومصالحها الكبرى والمحاكم ، ملزمة بأن تكتب إلى إدارة المطبوعات بجميع ما لديها من الأعمال المهمة التى تمت أو شرع فيها على أن تتم ، وعلى المحاكم أن ترسل جميع نتائج أحكامها ، وأن لإدارة الجريدة الرسمية حق الانتقاد على أى عمل من الأعمال عندما ترى له وجها ، حتى أعمال نظارة الداخلية نفسها التى كانت إدارة المطبوعات جزءا منها .

وأشرف الشيخ على مصالح الحكومة يرشدها إلى خطئها ، وأقام من نفسه مراقبا على الحكومة يبين لها مواضع الضعف فيها ويرشد إلى طريق التدارك لما يقع من خلل . وقد ضاق صدر بعض الوزراء والمديرين من شدة انتقاد الشيخ لهم ، حتى أن مدير بنى سويف أصدر أمره بمنع دخول الجريدة الرسمية إلى مديريته ... اشتد خطر الشيخ محمد عبده فأوغر ذلك صدر شانئيه ، فانضموا إلى الساخطين على رياض وحكومته .

وعين عثمان رفقى وزيرا للحربية ، وهو رجل ساذج محدود الإدراك لم يكن يهمه بعد قبض راتبه الشهرى سوى أن يرضى ميله ويروى ظمأه إلى

السلطة العسكرية فى بنى جلدته من الجراكسة ، وتجريد من ساء حظهم بالولادة فى مصر منها ، فأغضب ذلك الضباط المصريين فانضموا إلى معسكر الناقمين الثائرين .

ووثق رياض بمن لم يكن أهلا للثقة من المديرين فأساءوا إلى وجهاء البلاد ، و لم يكن يسمع الشكوى لاعتقاده أن أولئك الوجهاء هم أصل شقاء البلاد ، فوقر فى نفوس الأعيان أن رياض باشا عدوهم ، يريد إسقاطهم وإقامة من دونهم مقامهم .

وكانت تجيش فى القلوب وتلعب بالنفوس رغبة تأسيس الحكومة على قواعد الشورى ، راح الناس يقولون لا صلاح فى الاستبداد بالرأى وإن خلصت النيات ، فرأى واحد عرضة للخطأ وإن تحققت نزاهته عن الغرض ، ولكن رياضا لم يكن يعرف أن فى البلاد من يطلب الأمر طلبا صحيحا ، فراحت المتاعب تتلبد فى سماء حكمه ، وتكتلت القوى المتنافرة ، وتحفزت لتهب فى وجهه كالإعصار تقتلعه ووزارته من الحكم ، ثم تتفرق القوى المتكتلة تبحث كل منها عن مصلحتها التى ثارت من أجلها ..

٢١

وهنت الشمس فراحت تبعث أشعتها واهية ضعيفة كأنفاس المحتضر ، وهبت نسائم الأصيل رقيقة تعابث المكدودين الذين أمضوا سحابة يومهم فى كد ووصب ، ولكنهم لم يحفلوا بعبثها . كانوا يلتقطون أنفاسهم المكدودة فى

جهد وقد حنت أجسامهم إلى الراحة ، فجعلوا يعودون إلى دورهم زرافات ووحدانا مغبرى الوجوه مطرقى الرءوس طووا أفئدتهم على آلامهم ، وإن كانت كل خلجة من خلجات عيونهم وكل لفتة من لفتاتهم تنم عما يقاسون من حيف وحرمان .

وسار الشيخ إبراهيم وخديجة وسعدية صامتين وإن كانت الأفكار تتدسس إلى أذهانهم ، كان الشيخ يمد بصره أمامه فيرى الحقول المترامية ، والجسر والترعة ، والدواب فى رواحها ، فيقفز إلى رأسه سؤال : ثم ماذا بعد كل هذا الذى رآه آلاف المرات فى الغدو والآصال ؟ وإذا به يجيب نفسه عن ذلك التساؤل : لا شىء بعد هذا إلا أن يزول كل هذا ويمحى من الوجود .. أيزول كل هذا حقا ؟ أبدا .. لا يزول شىء من هذا ولكن أنت الذى تزول .. الأرض تتجدد ، تموت وتحيا ، فلماذا لا أكون كهذه الأرض كلما مت ردت إلى الروح ؟ فإذا به يجيب عن نفسه : حقا أنت كهذه الأرض لا تفنى أبدا ، تتجدد فى أبنائك وذراريك .

ورنا إلى خديجة وسعدية فتدفق الحنان إلى صدره ، وقفز ذهنه إلى حامد فجعل يفكر فيه .

وأطرقت خديجة ، فقد شرد ذهنها وراء عمار تدبر ما تفعله لترضيه ، فغاية ما تصبو إليه فى الحياة أن يدوم رضاه ، فما عادت تحتمل أن تعيش فى الحياة وحيدة بلا صديق .

وانطلقت سعدية ، كلما وقعت عيناها على شاب احتلت أقطار رأسها صورة حامد وهو فى ثياب الجندية يقدم إليها المنديل وقد تدلى من أطرافه الخرز الملون ، وأصغت إلى ذلك الحوار الذى دار بينه وبينها كالهمس : « والسنة

القادمة فى بيتى يا سعدية » ، فتشعر خدرا لذيذا يدغدغ حواسها وتفعم بمشاعر فوارة منبعثة من قلبها ..

ودلفوا إلى الدار ، وطفقوا يتأهبون لاستقبال الليل ، حتى إذا وافى ميعاد العشاء وفد عمار ، فما كان يغيب عن طعام ، وجلس معهم ، وشرد قليلا يفكر فيما يقوله فما كان يجلس صامتا ، ثم أشرق وجهه وانبسطت أساريره واعتدل يتأهب ليلقى النادرة التى سيقصها ، فقد كان شغوفا بإلقاء النوادر ، قال :

ــ خرج رجل يسأل الناس أن يعطوه مما أعطاهم الله ، وكان ضعيف البصر ، فانطلق فى الطرقات حتى وجد جماعة من الناس ، فذهب إليهم ، ولم يكن يرى مما كان يدور أمامه شيئا ، ولم يفطن إلى أن الجباة قد جاءوا برجل ليجلدوه ، فتقدم من الرجل وقال له :

ــ أعطنى مما أعطاك الله ..

فقال له الرجل :

ــ تقدم وخذ عشرين جلدة .

وقهقه عمار وضحكت خديجة ، وأشاحت سعدية بوجهها حتى لا يرى ما ارتسم فيه من ضيق ، كانت برمة به وبحديثه ، وكانت نفسها تحرضها على أن تطلق لسانها فيه ولكنها كانت تجاهد نفسها حتى لا تغضب خالتها .

وصاح عمار آمرا :

ــ سعدية ، اسقنى ..

وتدفقت دماؤها ثائرة فى عروقها ، ما بال هذا الرجل يأمرهم وينهاهم كأنما هم عبيده وجواريه ؟! إن جدها على الرغم من تقدم سنه يعمل

ويكافح ، بينما هو يمضى فراغه فى القهوة وفى الدار مضطجعا ، وحياته كلها فراغ لكأنه من الأغنياء الوارثين .

وقامت سعدية وهى تصر على أنيابها فى غيظ ، وأحضرت القلة وخطر لها أن تكسرها فى رأسه ولكنها دفعتها إليه فى غلظة ، فتناولها وراح يصب الماء فى جوفه ، ثم دفع إليها القلة وهو يقول :

ــ خذى ..

فأخذتها وذهبت ولكنها لم تعد ، وفطنت خديجة إلى غضبها فذهبت إليها وقالت لها فى توسل :

ــ تحمليه يا سعدية إكراما لى .

فقالت سعدية وهى مطرقة :

ــ اننا نتحمله من أجلك ، ولكن لماذا تتحملينه أنت ؟!

فقالت خديجة فى أسى :

ــ لا زلت صغيرة يا سعدية ، مستقبلك أمامك ، أما أنا فقد أدبر مستقبلى ، إذا تركنى عمار صرت وحيدة ، وما أمر الوحدة !

فقالت سعدية فى إنكار :

ــ كيف تكونين وحيدة وأنا وجدى معك ؟.

فقال خديجة فى نبرات حزينة:

ــ جدك لن يبقى لنا إلى الأبد ، وأنت سرعان ما تذهبين إلى بيت زوجك .

وصمتت خديجة قليلا ثم قالت :

ــ إننا نحس الوحشة حتى إذا كنا بين أهلنا ، ليس للمرأة إلا زوجها ..

فقالت سعدية فى عجب :

ــ ولماذا لا يعمل كما نعمل ؟

ــ لو عمل يا سعدية لما بقى فى هذه الدار لحظة ، لا يبقيه هنا إلا الراحة التى يعيش فيها ، إنه آخر أملى ، ليتك تفهمين !

و لم تفهم سعدية شيئا ، ولكنها أحست أن خالتها تتوسل إليها فأثر ذلك فى نفسها فقالت :

ــ ماذا تريديننى أن أفعل ؟

ــ ألا تكرهيه .

فقالت سعدية فى حرارة :

ــ لن أكرهه بعد الليلة ، بل سأعزه إكراما لك ..

فضمتها خديجة إلى صدرها وقد غامت عيناها بالدموع ..

٢٢

شرد توفيق ببصره وارتسم فى وجهه ضيق وغضب ، وبعد أن خدش رياض باشا كرامته وانسل وتركه يلوك حنقة لا يجد منفسا لمشاعر الأسى التى راحت تمور فى جوفه ، ودخل عليه بعض خاصته ممن كانوا ملتفين حول أبيه من أصحاب المطامع التى لا تهدأ ، الذين ذاقوا لذائذ الاستبداد بالنـاس وامتصاص رحيق جهودهم دون أن يقف بينهم وبين ضحاياهم سلطـان أو قانون ، فلما رأوا وجه الخديو متغيرا قالوا له فى ملق :

ـــ ما الذى أهم مولانا ؟

ـــ ما دخل على رياض إلا أغضبنى .

ـــ وكيف جرؤ على إغضاب ولى نعمه ؟

فقال توفيق فى مرارة :

ـــ كلما أردنا أن ننعم بالرتب والنياشين على من يستحقون إحساننا عارض فيما عزمنا عليه ولج فى معارضته .

ـــ اضربوا يا مولانا بمعارضته عرض الحائط وافعلوا ما تشاءون .

فقال توفيق فى ضعف :

ـــ إذا اشتد الجدل بيننا وأصررت على فعل شيء ، هدد بتدخل القناصل ؛ فهم يؤيدونه .

ورأوا الفرصة سانحة ليوغروا صدر الخديو على رئيس وزرائه ، وأن يوسعوا شقة الخلاف بينهما . كانوا يمقتون رياضا لأنهم أحسوا أنه لم يبق لهم التصرف المطلق فى الأعمال والمصالح ، وأن الأحكام تجرى عليهم كما تجرى على عامة الشعب ، فقالوا :

ـــ إنه يهدف فى كل ما يفعله إلى رعاية مصلحة الأجانب ، حتى يضمن تأييد الغرب له .

ـــ ولكن أمره بدأ يتكشف للناس بعد الحملات القوية التى يشنها عليه أديب إسحاق ، فقد ذاع بين الناس الإسم الذى أطلق عليه ، فإذا ما تحدثوا عنه قالوا : غلادستون رئيس وزراء إنجلترا ، ورياضستون رئيس وزرائنا ، لقد وقر فى أذهان الناس أنه راعى المصالح الإنجليزية فى مصر .

وجاء أحدهم بجريدة القاهرة التى كان يصدرها أديب إسحاق فى أوروبا

وينفق عليها الخديو السابق ، وكان لا هم لها إلا تجريح رياض ورميه بالاستبداد والظلم والرغبة فى بيع البلاد إلى الأجانب ، فقد حقد أديب على رياض باشا لأنه ألغى له جريدة كان يصدرها .

راح الرجل يقرأ مقالة ساخرة كلها طعن فى رياض ووطنيته ، فأحس توفيق راحة وانبسطت أساريره ، فشجع ذلك بطانته على أن يسرفوا فى السخرية من رئيس الوزراء الذى يبغضه الخديو .

وأخذ أحدهم يقلد رياضا فى كلامه وفى حركاته أثناء خطابه ، ثم مشى مثله فى خيلاء ، ثم جلس شامخا برأسه وقد رفع صدره فى كبرياء ، فبدت نواجذ الخديو من الضحك ، وشاء أحدهم أن يجهز على رياض والفرصة مواتية ، فقال :

ـــ سمعت يا مولانا أن مطامع رياض لا حد لها ، وأنه يتقرب من القناصل ليؤيدوه فى مطامعه .

فقال توفيق فى لهفة :

ـــ وفيم يطمع ؟

فقال الرجل ينفث سمومه :

ـــ يقال انه يطمع فى مسند الخديوية .

اربد وجه توفيق وأفعم بالغيظ ، وتحركت عقارب الغيرة تنهشه وتغذيه ، وصدق ما قيل له فراح ذهنه يعمل ليستريح من رئيس وزرائه الطامع فى ملكه ، وقال قائل :

ـــ اعزله .

فقال توفيق فى ضعف :

ـــ سيعارض قنصلا إنجلترا وفرنسا فى عزله لو أردنا ذلك .

وأطرقوا جميعا يفكرون ، ثم قال أحدهم :

ـــ أتذكرون يا مولانا ما فعله والدكم ليتخلص من نوبار باشا ؟!

وارتفعت أصوات التأكيد تصيح :

ـــ هذا هو الرأى .

كانت الفكرة تناسب طبع الخديو فأعجب بها ، فما كان قويا ليجهر برأيه ويتشبث به ، بل كان يميل إلى نسج المؤامرات والسهر على تنفيذها فى الظلام ، فوطن النفس على أن يكيد لرياض ، وأن يؤلب الحانقين عليه فى الخفاء دون أن يظهر .

أخذ توفيق يستدنى منه على بك فهمى أمير آلاى الحرس ، ويستدعيه إلى مجالسه الخاصة ويمازحه ، ويدس له فى أحاديثه ما يوغر صدره وصدور إخوانه من الضباط على رياض ، قال له ذات يوم :

ـــ أردت الإنعام عليك بألف جنيه ولكن رياض باشا عارض فى ذلك .

وقال له فى إحدى الأمسيات التى كانا يمضيانها معا :

ـــ أردت الإحسان عليك برتبة اللواء فلم يقبل رياض باشا .

وحدثه مرة عما يبيته له ولزملائه رياض باشا وعثمان رفقى باشا وزير الحربية ، ليحرماه وإخوانه من المصريين الترقية تعصبا للضباط الجراكسة ، فتيقن على بك فهمى أن رياض باشا عدو منفعته ومنفعة إخوانه ، وفطن إلى أن الخديو ساخط على رئيس نظاره . فراح يتصل بالضباط الكبار يناجيهم ويبثهم مخاوفه ، ويحرضهم على الثورة على رياض باشا ووزرائه .

واستمر رياض فى عمله لا يخالج فكره ريبة فى سكون المصريين إلى الطاعة

فى كل ما يؤمرون به ، حملا لهم على سالف عهدهم ، وما دار بخلده أن نار الثورة عليه بدأت تتأجج فى الصدور ، وأنها توشك أن تندلع وراح توفيق يرصد الحوادث متلهفا ، فما كانت له أمنية إلا عزل رياض ، وما درى أنه يوم شجع على بلك فهمى أمير آلاى حرسه على رئيس وزرائه قد أطلق المارد من قمقمه .

٢٣

كان الضباط المصريون فى خطر وفزع ، فقد ناصبهم عثمان رفقى باشا ناظر الجهادية العداء وراح يصدر القوانين الجائرة بهم ، فما كان يحب أن يراهم سواسية كالسادة الجراكسة الكرام ، كان جركسيا متعصبا فأراد أن يتخلص من كبار الضباط المصريين يستبدل بهم آخرين من جنسه ، فقد كانوا فى عينيه كالقذى ، ألف أن يرى أبناء الفلاحين مهانين أذلاء فكبر عليه أن يراهم فى الصدارة ينازعون الجراكسة الصولة والسلطان .

وشاء عثمان رفقى أن يطعن كرامة الجنود المصريين ، فأمر أحمد عرابى أن يقوم وجنده بحفر الترعة التوفيقية ، فأبى عرابى أن يخضع لهذا الذل ، ورفض أوامر ناظر الجهادية المهينة للجندية ، فما كان ليرضى أن يعمل جنوده سخرة حتى فى أراضى الخديو .

وضاق عثمان رفقى بعرابى ، رفض أوامره وجرح كبرياءه كأنما لم يكن كافيا ما فعله به قبل استعفاء وزارة شريف باشا ، فقد حرض الضباط على أن

يقدموا عريضة إلى الخديو يلتمسون فيها عزله لرداءة المآكل وضررها بصحة العساكر ، ولسوء حال المستودعين وعدم النظر فى إصلاح معاشهم .

ان أحمد عرابى يبغضه ، وهو يكرهه من كل قلبه ويتمنى أن يتخلص منه فراح يفكر فيما يفعله وينفذ ما يفكر فيه ، فدبر مشاجرة يشترك فيها أحمد عرابى وجنوده مع بعض أعوانه ، وكان يرجو أن يقتل عرابى فى المشاجرة ، ولكن حب جنود عرابى له والتفافهم حوله كان ينجيه من مكايد رفقى وأعوانه المتربصين به .

وكان عثمان رفقى يمقت أحمد عبد الغفار قائم مقام السوارى ، وكان بينه وبينه منافرة ، وقد عرف الخديو ما بين الرجلين فقد شكا عثمان رفقى تصرف أحمد عبد الغفار معه . فوطن توفيق العزم على أن يدنى عبد الغفار منه ، فقد كان يعطف على الثائرين فى وجه رياض ووزرائه .

كان الخديو يخرج كل يوم للنزهة ، فكان يستدعى أحمد عبد الغفار فى طريق منتزه الجزيرة ويستوقفه ويحادثه الزمن الطويل مظهرا ميله إليه ، فلما بلغ ذلك عثمان رفقى أجج نار عداوته لعبد الغفار .

وعاد نجم الدين باشا من الحج ، فأقام وليمة فاخرة فى بيته دعا إليها كبار رجال الجيش ، فوفد إلى المكان بعض أمراء الجيش الجراكسة وبعض الضباط المصريين ، وأقبل أحمد بك عرابى بقامته الطويلة يتقدم فى بطء قوى البنية لكأنما كان يمثل تلك القوة العظيمة التى اشتهر بها الفلاح المصرى ، وجلس قريبا من الفريق إسماعيل باشا كامل وهو من أصل جركسى ، وراح عرابى يتحدث فكان فى إشاراته ذلك البطء الذى منحه مظاهر النبل العريق .

مال الفريق إسماعيل باشا كامل إلى الجالس إلى جواره وقال له :

— إن ناظر الجهادية أتى اليوم عملا لا يحمد عليه ، عزل أحمد عبد الغفار من قائمقامية السوارى وعين بدله محمد شاكر بك .

فمال الرجل على عرابى وهمس له فى أذنه بما سمع ، فقال عرابى للفريق :

— أحق هذا ؟

— نعم ، وقد شرع فى سن قانون يمنع ترقى المصريين العاملين فى الآلايات تحت السلاح ، وقد سلمت الأوامر إلى الكتاب للإجراء بمقتضاها .

فقال عرابى وهو يهز رأسه :

— هذه لقمة كبيرة لا يقوى عثمان رفقى على هضمها .

وجاء ضابط يتلفت ، حتى إذا ما رأى أحمد عرابى ذهب إليه وقال له :

— إن كثيرا من الضباط ينتظرونك بمنزلك .

فقام معه وانصرف يغذ السير وقد أخذت المشاعر الفوارة تنفجر فى جوفه ، ولما بلغ داره ألفى الأميرالاى عبد العال حلمى حكمدار الآلاى السودانى ، والبكباشى خضر أفندى ، والبكباشى محمد أفندى عبيد ، والأمير آلاى على بك فهمى أمير آلاى الحرس الخديوى ، والقائم مقام أحمد عبد الغفار ، فلما رأوه انطلقوا إليه يصيحون فى ثورة :

— أبلغك ما فعله عثمان رفقى ؟! عزل أحمد عبد الغفار ، وسن قانونا يمنع الترقى من السلاح .

فقال عرابى :

— قد سمعت هذا من غيركم ، فماذا تريدون ؟

قالوا :

— وليس الأمر كذلك فقط ، بل إنه قد كثر اجتماع العنصر الجركسى فى

منزل خسروا باشا الفريق ، وهم يتذاكرون فى تاريخ دول المماليك فى كل ليلة بحضور عثمان باشا رفقى ، ويقولون إنه قد حان الوقت لرد بضاعتهم إليهم ، وإنهم لا يغلبون من قلة ، وظنوا أنهم يملكون مصر ويستبدون بها كما فعل أولئك المماليك من قبلهم .

فقال عرابى :

ــ وماذا تريدون إذن ؟!.

ــ إنما جئناك لنرى رأيك

ــ رأيى أن تتريثوا وتهدئوا روعكم ، وتعتمدوا على رؤسائكم وتفوضوا إليهم النظر فى مصالحكم ، وهم يتخذون من بينهم رئيسا لهم يثقون به كل الوثوق ، ويسمعون قوله ويطيعون أمره ، ويحفظونه بمعاضدتكم إذا أرادت الحكومة به شرا .

ــ إنما فوضنا إليك هذا الأمر ، فليس فينا من هو أحق به وأقدر عليه منك .

كلا بل انظروا غيرى ، وأنا أسمع له وأطيع وأنصح له جهدى .

ــ إنا لا نبغى غيرك ولا نثق إلا بك .

ــ إن الأمر عصيب ، والحكومة ستقتل من يتصدى له إذا ظفرت به .

ــ نحن نفديك ونفدى الوطن العزيز بأرواحنا .

ــ أقسموا لى إذا على ذلك .

ــ نقسم بالله العلى العظيم أن نفديك ونفدى الوطن العزيز بأرواحنا .

وأفعم المكان بالحماسة فقال عرابى :

ــ ماذا نحن فاعلون ؟

فقال عبد العال حلمى فى ثورة :

ــ نصطحب قوة ونذهب إلى منزل عثمان رفقى ونقبض عليه أو نقتله :

فقال عرابى ناصحا :

ــ كلا يجب أن نقدم عريضة أولا لرئيس الوزراء ، فإذا لم يقبل نقدم عريضة أخرى للخديوى .

ــ هذا هو الرأى .

وراح عرابى يكتب العريضة التى سيرفعونها إلى رياض باشا رئيس الوزراء ، يطلب فيها عزل ناظر الجهادية وتعيين غيره من أبناء الوطن ، وتأليف مجلس نواب من نبهاء الأمة ، وإبلاغ الجيش إلى ١٨٫٠٠٠ جندى ، ولما انتهى من كتابتها تلاها على الحاضرين فوافقوا عليها ، وختمها عرابى بختمه وختم على بك فهمى وعبد العال بك فهمى ، ثم راحوا يتدارسون الموقف ويضعون الخطط لحفظ الخديو والوزراء من غدر الضباط الجراكسة وصيانة المصارف وبيوت التجارة ، وحفظ الأمن ، وانصرفوا يرقبون الغد وفى صدورهم نار تتأجج .

٢٤

انطلق عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى إلى ديوان الداخلية ، وقدموا إلى وكيل الداخلية العريضة وطلبوا منه عرضها على رئيس النظار فذهب الوكيل ثم عاد وقال لهم :

ـــ الرئيس يريد أن يراكم .

فدخلوا عليه ، فهش لهم رياض وقال لهم :

ـــ اطمئنوا ، سأنظر فى الأمر وسيأخذ الحق مجراه ..

وشاع بين الناس خبر طلب الضباط عزل ناظر الجهادية ، وأحس الأعيان والموظفون وجود خلاف بين الخديو ورئيس نظاره ، فهب جميع الراغبين فى تغيير الحال يناوئون الوزراء . اتحدت وجهتهم وإن اختلفت الدواعى والبواعث .

كان شريف باشا وعمر لطفى وسلطان باشا من أعداء حكم رياض ، فألفوا جمعية حلوان لمناوأته ، فراحوا يطبعون المنشورات السرية يحرضون الشعب فيها على المطالبة بمجلس النواب ، كان شريف مؤمنا بالمطالب الوطنية ، وأما عمر لطفى فقد كان من رجال السراى ، ولكنه انضم لهما لأنه كان يرى أن خير وسيلة يبسط بها سلطانه على البلاد أن يسيطر على النواب ، فلما بلغهم نبأ تذمر الضباط بعثوا إليهم يؤيدونهم فى مطالبهم ، ويقولون لهم إنها موافقة للرغائب الوطنية ...

ورأى المتضجرون من استبداد بعض المأمورين والخائفون من أن يؤخذوا بالشبه الفرصة سانحة لكشف كربتهم ، فهرعوا يؤيدون الضباط لعل فى تبديل الوزارة إعادة الأمن إلى نفوسهم الوجلة الخائفة .

وحسب الأغنياء أن فى سقوط الوزارة استعادة سلطتهم على أبدان الرعية وأموالها ، فبعثوا إلى الضباط يقولون لهم إن ما يأتيه ناظر الجهادية لا يمكن الصبر عليه ، أو معالجته بالحكمة والروية .

وضجر البارون دى رنج قنصل فرنسا من رياض فقد كان يعارض بعض رغباته ، فرأى أن يسعى فى الانتقام منه ، فقد يأتى خلف له يمكنه مجاراته فى مطالبه .

ومشى إلى الضباط من يقول لهم إن جناب الخديوى لا يأبى إجابة طلبهم بل يحب أن يحقق لهم أمنيتهم ، ولكن رياض باشا لا يريد ذلك ويعارضه .

وطالت مدة التردد فى حسم المسألة ، فكثرت الشائعات وقويت عزائم الضباط ، وغلب الظن بضعف الحكومة ، فلما انقضى أسبوع على تقديم العريضة ، ذهب عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى إلى بيت الرئيس وسألوه عما تم فى أمر عريضتهم ، فقال لهم رياض :

ـــ إن ما أودعتموه فى تقريركم من طلب عزل الناظر يعد خروجا عما حدده لكم القانون ، وتلك مهلكة سياسية ، فقد يخشى أن يعد الأجانب ذلك سبيلا لزيادة تدخلهم فى الحكومة واشتداد وطأتهم عليها .

فقال له عرابى :

ـــ اننا لا نطلب إلا حقا وعدلا ، وليس فى طلب الحق من خطر ، وإنا لنعتبرك أبا للمصريين فما هذا التلويح والتخويف ؟.

— ليس فى البلاد من هو أهل لأن يكون عضوا فى مجلس النواب .

— إنك مصرى ، وباقى النظار مصريون ، والخديو أيضا مصرى .. أتظن أن مصر ولدتكم ثم أعقمت ؟ كلا فإن فيها العلماء والنبهاء .. وعلى فرض أن ليس فيها من يليق لأن يكون عضوا فى مجلس النواب ، أفلا يمكن إنشاء مجلس يستمد من معارفكم ويكون كمدرسة إبتدائية تخرج لنا بعد خمسة أعوام رجالا يخدمون الوطن بصائب فكرهم ، ويعضدون الحكومة فى مشروعاتها الوطنية ؟

فقال الرئيس فى هدوء :

— سننظر بدقة فى طلباتكم هذه .

أحس البارون دى رنج بما دار بين الرئيس والضباط ، فأرسل إلى عرابى وصحبه يقول لهم إنه يسره ما يراه من صلابتهم فى عزيمتهم واشتدادهم فى المطالبة بالعدل فيهم ، فعليهم أن يثبتوا فى مطالبهم ولا يضعفهم ما يهددون به ، فهو بصوت حكومة فرنسا يسند المطالب العادلة وليس فى الإمكان أن حكومة متمدنة تقيم الموانع فى سبيل الناهضين بطلب حقوقهم ، الساعين فى الانتصاف لأنفسهم ولأبناء بلادهم .

انكشف ذلك الوهم الذى كان مسيطرا على العقول وفضحه قول البارون ، فقد اتضح أن رياض باشا لم يكن مؤيدا فى منصبه بقناصل الدول ذات النفوذ ، فراح عرابى وصحبه يدعون سائر الضباط للاتفاق معهم على مقاومة كل ما تسنه نظارة الجهادية من نظام ضار بهم ، وطلب عزل ناظرها الذى حسب أن مصر تدفع له راتبه لإذلال أبنائها .

وقوى صوت الضباط وتوتر الجو ، فانعقد مجلس النظارة برياسة الخديو

لحل هذه الأزمة التى توشك أن تنعقد حلقاتها .

جلس الخديو فى الصدارة والأفكار تتزاحم فى رأسه ، كان يفكر فى أن يشعل نار الضباط حتى يثوروا على رياض ويرغموه على الاستقالة فهذه أمنيته الكبرى ، وجلس رياض إلى يمينه وهو يرجو أن يخرج من هذه الورطة بما يحقق العدالة ، وجلس عثمان رفقى منفوشا ثائرا لا هم له إلا أن يمرغ أنوف هؤلاء الضباط الفلاحين فى الرغام ، وتناثر الوزراء حول المائدة ، واندس رجال المعية بين الوزراء يوجهونهم إلى ما يرضى ولى النعم !.

وبدأ رياض باشا يتكلم فقال :

ـــ أرى أن يحال ما فى التقرير على مجلس عسكرى ينظر فى جميع أطرافه ، فما كان لهم حق منحوه ، وإن استحقوا عقوبة وقعت عليهم .

فغضب عثمان رفقى ، فلو أخذ بهذ الرأى لأحيل إلى مجلس عسكرى ، ولوقف أمامه جنبا إلى جنب مع هؤلاء الفلاحين الذين يمقتهم مقتا ، فقال فى انفعال :

ـــ لابد من القبض على الضباط الثلاثة والحكم عليهم بالعقوبة التى استحقوها بجرأتهم هذه .

وارتفعت أصوات بعض الوزراء ورجال المعية :

ـــ هذا هو الرأى .

فهب رياض يعارض ولا يلين ، ويتمسك بضرورة إحالة التقرير إلى مجلس عسكرى ، ووجد توفيق الفرصة مواتية لإحراج رياض فقال :

ـــ رأيى اعتقال هؤلاء الضباط ومحاكمتهم .

و لم يتزحزح رياض عن موقفه ، فطن إلى أن الطعنة مسددة إلى صدره فراح

يدافع عن رأيه دفاع المستميت ، واستمر الجدال إلى أن جاء وقت الظهر و لم يستقر رأى المجلس على شىء ، فقاموا إلى المائدة يتناولون الغداء .

فرغوا من طعامهم وتأهبوا للرجوع إلى مداولاتهم ، وقبل أن يدلفوا إلى قاعة الاجتماع ، اقترب طلعت باشا أحد رجال المعية من رياض وأسر إليه :

— إن بعض الناس يتهم دولتكم بمجاراة الضباط والأخذ بناصرهم طمعا فى أن تملك قلوبهم ، ثم تستخدمهم فى الاستيلاء على الخديوية المصرية .

واندكت مقاومة رياض ، وأصبح كالفأر الحائر فى المصيدة لا يدرى أين الخلاص ، فلما عادوا إلى الجلسة لاذ بالصمت لا ينبس بكلمة ، ولاحظ توفيق فى وجهه الهم والضيق فالتمعت فى جوفه بسمة وإن لم ترتسم على شفتيه .

وتحدث الخديو فمال المجلس إلى رأيه ، فأحس رياض هما ثقيلا ، والتفت إلى عثمان رفقى وقال :

— هل تتحمل تبعة هذا الأمر ؟

فقال عثمان رفقى فى اندفاع :

— نعم .

وجاء أحمد خيرى باشا رئيس الديوان الخديوى ، وراح يتلو الأمر العالى :

« إن الأمراء الثلاثة أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى مفسدون ، وإنه لذلك يقتضى إيقافهم من الخدمة ، ومحاكمتهم على إفسادهم ومجازاتهم بالعقاب الصارم فى مجلس عسكرى فوق العادة تحت رياسة ناظر الجهادية ، ويكون من أعضائه ستون باشا رئيس أركان الحرب ، ولارى باشا ناظر المدارس الحربية » .

وشمخ عثمان رفقى برأسه ، وأشرق وجه الخديو ، وأطرق رياض يحس قهرا .

٢٥

صدر الأمر العالى بمحاكمة أمراء الجيش الثلاثة ، ولكنه لم ينفذ بقوة الحكومة وسطوتها ، بل سلك عثمان رفقى فى تنفيذه عن طريق الحيلة والغدر ، فكتب إلى عرابى وعبد العال وعلى فهمى يدعوهم إلى ديوان الجهادية للمذاكرة فى ترتيب حفلة زفاف الأميرة جميلة شقيقة جناب الخديو ، فلما وصلت إليهم الدعوة دهشوا ، فما كان موضوعها يحتاج إلى مداولة ثلاثة من أمراء الآلايات وفى هذا الوقت بالذات ، ففطنوا للحيلة ، وأرسلوا إلى من يثقون فيهم من الضباط ، فلما جاءوا أطلعوهم على ورقة الدعوة ، فقال قائل :

— هذه خدعة ، سيستدرجونكم إلى قصر النيل ثم يقبضون عليكم ، وبعدها يبطشون بكل ضابط مصرى .

فقال عرابى :

— يريد عثمان رفقى أن يخدعنا ويبطش بنا كما فعل محمد على باشا بأمراء المماليك حينما دعاهم إلى وليمة القلعة وبطش بهم .

وارتفع صوت يقول :

— أين نحن من زفاف جميلة ؟ فما حان بعد زمن الزفاف . إنها خدعة مكشوفة .

ـــ وماذا نحن فاعلون ؟

فقال البكباشى محمد عبيد :

ـــ يلبى أمراء الجيش الدعوة ، وعلينا أن نسهر على سلامتهم .

وقال البكباشى خضر خضر من الآلاى السودانى :

ـــ سنقاوم الشر بالقوة إذا اقتضت الحال ذلك .

وانطلق الأمراء الثلاثة إلى قصر النيل يتبعهم على بعد بعض العيون من جند الآلاى الأول ، آلاى الحرس الخديوى ، بعثهم البكباشى محمد عبيد الذى كان يرقب الحوادث ينتظر ما تتمخض عنه الأحداث .

ودلف عرابى وعبد العال وعلى فهمى إلى ديوان الجهادية وإذا به غاص بالضباط الجراكسة ، وإذا العيون تصوب إليهم تنطق بالخيانة والغدر وإذا الابتسامات الخبيثة ترف على الشفاه ، وإذا بأيدى الضباط الشبان تمتد إلى الطبنجات ، وفاض السرور بوقوع الفريسة فى الشرك ، فانطلقت ضحكات الغبطة تدوى فى المكان ، واستمر عرابى وعبد العال وعلى فهمى فى تقدمهم حتى بلغوا مكان ناظر الجهادية عثمان رفقى العدو الألد .

حيوه التحية العسكرية وأعاروه سمعهم ، وإذا بهم يسمعون وقع أقدام جنود تقترب ، وراح ناظر الجهادية يتلو عليهم أمر القبض عليهم ، وتقدم منهم بعض الضباط الجراكسة وجردوهم من سيوفهم وساقوهم إلى السجن فانطلقوا بين صفين من ضباط الجركس المسلحين بالطبنجات .

وأغلق عليهم الباب فأطرقوا محزونين ، وزاد فى حزنهم تقاذف الشتائم عليهم ، ومر خسرو باشا كبير الجراكسة بباب السجن وهتف ساخرا :

ـــ ايه ، يا فلاحين يا شغالين بالمقاطف .

وتأوه على فهمى وقال فى حزن :

ــ لا نجاة لنا من الموت وأولادنا صغار .

واشتد جزعه حتى هم بأن يرمى بنفسه فى النيل من نافذة الغرفة .

عاد عيون البكباشى محمد عبيد إليه ، وأخبروه أن عرابى وعبد العال وعلى فهمى قد ألقى القبض عليهم وسجنوا فى قصر النيل ، فهرع محمد عبيد إلى حامل البروجى وصاح به :

ــ اضرب نوبة طابور .

ودوى صوت البروجى فى ثكنات عابدين ، وخف الجند يصطفون صفوفا ، فأسرع القائم مقام المعين حديثا بدلا من على بك فهمى أمير آلاى الحرس الخديوى إلى عبيد وصاح فيه :

ــ ماذا فعلت ؟.

ــ فعلت ما ترى .

ــ لماذا تجمع الجند ؟

ــ لأنقذ إخواننا الذين غدرتم بهم .

ــ إذا تحركت من هنا أمرت بقطع رأسك ، أنا أمير الآلاى .

فلم يلتفت إليه وأمر بعض جنوده :

ــ اقبضوا عليه .

ــ فانقض الجنود على أمير الآلاى الجديد وساروا به ليضعوه تحت الحفظ .

وانسابت فرق الحرس فى ميدان عابدين ، ووقف الخديو فى شرفة السلاملك حانقا غاضبا ، وصاح بحامل البروجى أن يضرب نوبة حضور

الضباط ، وجلجل صوت البروجى ، وانتظر الخديو ولكن لم يذهب إليه أحد ، بل اندفع الجنود إلى قصر النيل لإنقاذ عرابى وصاحبيه

ووصل الجنود إلى قصر النيل ، فقال محمد عبيد لزميله على أفندى عيسى البكباشى :

— اذهب بفرقتك إلى الجهة الخلفية ، وسأذهب بفرقتى إلى الجهة الأمامية .

وأمر فرقة من العساكر أن تقتحم الديوان الذى أوصدت أبوابه ومنافذه للبحث عن أمراء الجيش المحبوسين ، وإطلاقهم من سجنهم .

واندفع الجنود يحطمون الأبواب ، ثم انسابوا إلى ثكنات قصر النيل وقد كشروا عن أنيابهم ، فلما رآهم الضباط الجراكسة أطار الرعب قلوبهم فراحوا يفرون مفزوعين يقفزون من النوافذ ، وأطلقوا لسيقانهم الريح لا يلوون على شىء ، وطفق عثمان رفقى يهرول وهو يرتجف ، وانطلق إلى سراى عابدين يحتمى بالخديوى .

وأخذ الضباط والجنود يحاولون فتح الباب الذى أغلق على عرابى وعبد العال فهمى ، فلما امتنع عليهم حطموه ، ثم اندفعوا كالسيل يتعانقون وقد اغرورقت العيون . وخرج الضباط الثلاثة ظافرين ، وأخذت هتافات الفرح تتردد بين جنبات قصر النيل ، ووقف عرابى خطيبا فى الجنود ، وقال :

— أتوسل إليكم بأن لا تمتد أيديكم بسوء إلى أحد من الجراكسة ولا إلى غيرهم من الضباط لأنهم إخواننا ، ولئن آثروا أنفسهم علينا ، فإننا لا نريد إلا النصفة والمساواة .

ونظر عرابى فألفى إلى جانبه إسماعيل باشا كامل فعانقه أمام العساكر ثم قال :

ـــ إن هذا الباشا جركسي ولكنه أخى ، حرام علينا دمه وماله وعرضه ، وكذلك غيره من الجراكسة ، فانصرفوا على بركة الله إلى مراكزكم .

وعاد الحرس الخديوى إلى ثكناته بعابدين ، وذهب عرابى إلى مركز الآلاى ، وطفق الجنود يغدون ويروحون يحسون فى أعماقهم أنهم خلقوا خلقا جديدا ، فقد رأوا اليوم القواد الجراكسة يفرون أمامهم كالأرانب المذعورة :

وبلغ البكباشى خضر خضر نبأ القبض على عرابى وصاحبيه فأحس الدماء تتدفق حارة فى عروقه ، فخرج بالآلاى السودانى من طرة ، وانطلق لينقذ من أقسم على إنقاذهم إذا ما حاق بهم خطر ، وفيما هو فى الطريق بلغه خبر إنقاذهم ، فذهب بجنوده إلى ثكنات عابدين ليطمئن على الضباط الثلاثة ويحييهم .

وانساب الآلاى السودانى فى ميدان عابدين فاستقبله آلاى الحرس بالتعظيم العسكرى وهو حامل سلاحه ، وأسرع البكباشى خضر خضر إلى حيث كان عرابى ، وتعانق الرجلان .

ووقف عرابى يخطب الضباط والجنود ، فقال :

ـــ أوصيكم بالهدوء والسكينة ، إننا لا نطلب إلا العدل والمساواة مع إخواننا الجراكسة والأتراك ، وأن لا يكون المصرى محتقرا فى نظر الأجناس الأخرى ، ونريد كذلك مجلسا نيابيا لحفظ حقوق آبائنا وإخواننا من ظلم المستبدين الظالمين .

وأرسل عرابى إلى البارون رنج قنصل فرنسا يلتمس منه أن يبلغ جميع القناصل أن الضباط لم يأتوا عملا إلا ما يقى أرواحهم ويضمن لهم إقامة العدل فيهم ، وأنهم لم يأتوا جريمة سوى أنهم طلبوا عزل ناظر الجهادية وهو طلب عادل لسوء تصرفه .

كان البارون يكره رياض باشا ويؤيد جميع الحركات التى تحرجه ، فأرسل إلى عرابى يثنى على عزيمته وثباته فى مطالبه العادلة ، ويبشره أنه لا خوف عليه ما دام الحق فى جانبه .

ووفد الليل والموسيقى تعزف السلام الخديوى ، والعساكر تهتف باسمه ، وشددت الحراسات ، وأخذ الليل يتصرم وقد أرهفت الحواس وتفتحت العيون ، وكان حامد فى الميدان مع إخوانه الجنود يستشعر زهوا ، تذكر جده الشيخ فأشرق وجهه بابتسامة ، كان كلما عاد إلى القرية وجلس إلى جده لا يجد عنده ما يقصه عليه ويستحوذ على لبه ، وكان يرنو إلى يوسف فى غيظ وهو يتحدث والشيخ يعيره سمعه ، أما وقد شاهد اليوم كل هذه الأحداث العظام وشارك فيها ، فسيجد ما يقص نبأه على الشيخ ويسترعى انتباهه .

وقفزت إلى رأسه صورة سعدية فتفجر الحنان فى جوفه ، وخفق قلبه فى صدره ، وغمرته نشوة عارمة .

٢٦

قصر عابدين غاص بالوزراء ، وقواد الجيش من الجراكسة الذين فروا مرعوبين من قصر النيل خشية بطش الفلاحين بهم ، وقناصل الدول الذين خفوا إلى الخديو ينصحون بإجابة طلبات الجيش حسما للنزاع ومنعا للخطر ، فما عاد للحكومة هيبة ، ولن تستطيع أن تعيد بالقوة الأمور إلى نصابها .

وأطرق توفيق مهموما ، كان يريدها ثورة ضد رياض فإذا به أول من يكتوى بنارها ، عصى ضباط الحرس أوامره و لم يلبوا نداءه لما انطلق البروجى يدعوهم للتجمع عند سلاملك الخديو ، وراح الوزراء يتشاورون فى الأمر فقال محمود سامى البارودى :

ـــ إنى أرى العساكر على الطاعة بدليل هتافاتهم باسم الخديو وأن الموسيقى تعزف بالسلام الخديوى ، فلو أجيبت طلباتهم لانحسمت المسألة بسلام .

فقرر الخديو والوزراء تعيين محمود سامى البارودى وخيرى باشا رئيس الديوان الخديوى لمفاوضة الضباط ، فانطلق الرجلان إلى ثكنات القصر وقابلا عرابى وصاحبيه وقالا لهم :

ـــ ماذا تريدون ؟

ـــ إننا على الطاعة ولا نريد إلا الإصلاح

فقال خيرى باشا :

— وما هو الإصلاح ؟

— هو ما أوضحناه بعريضتنا ، ورغبتنا هى أن يبدأ بعزل ناظر الجهادية عثمان رفقى باشا ثم يشرع فى تنفيذ باقى الطلبات .

وعاد الرسولان إلى الخديو وأفضيا إليه بالخبر ، فظل توفيق على عبوسه فلو أن هؤلاء الثائرين طلبوا إسقاط الوزارة كلها لاستراح من رياض ، ولكان هناك ما يعوضه عما ناله من هوان، وما كان أمامه إلا أن يذعن لطلبات الجيش فأعاد الرسولين إليهم ليخبراهم أن الخديو قد وافق على طلباتهم .

وعاد خيرى باشا ومحمود سامى باشا إلى الضباط وقالا لهم :

— قبل الخديو طلباتكم وعزل ناظر الجهادية ، فاختاروا ناظرا غيره .

— لا خيرة لنا ، إنما نريد ناظرا وطنيا يعينه الخديو .

فقال خيرى باشا :

— إن الخديو فوض إليكم اختيار الناظر حتى لا تشكوا فيما بعد ..

فالتفتوا إلى محمود سامى البارودى باشا وقالوا :

— إننا نرضى بتعيين محمود سامى باشا هذا ناظرا للجهادية .

وعين محمود سامى البارودى وزيرا للجهادية ، فرضى الضباط بهذا التعيين وأرضى المطالبين بالدستور ، فمحمود سامى من رجال شريف باشا المصلحين المطالبين بالحياة النيابية ، وإن قبل أن يشترك مع رياض فى وزارته .

وانصرف الجنود إلى ثكناتهم ، وأطرق رياض باشا يفكر فى أسباب هذه الجرأة التى أقدمت بهؤلاء الضباط على تمزيق حجاب الهيبة المضروب بينهم وبين الحكومة ، مع أنهم ليسوا إلا مصريين قد عرفوا بالاستكانة للسلطة وتنزيه الحاكم عن أن تتطاول إليه الأوهام بالمقاومة ، فانحصرت كل الأسباب

عنده فى البارون دى رنج قنصل فرنسا الجنرال ، لهذا سعى لدى الخديوى فى أن يطلب من رئيس الجمهورية الفرنسية استدعاءه من مصر ، فورد الجواب بقبول الطلب ، فتنفس رياض الصعداء فقد حسب أنه تخلص من عدوه ، وأن وجه البلاد سيخلو له .

لم يدر فى خلده أن جذور الثورة أعمق مما ظن ، وأن البارون لم يكن الباعث لهذه الثورة ، بل شهد نارها تتأجج فألقى فيها بعود حطبه لعله يحرق رياض باشا الذى كان يكرهه ، وما خطر له أن أعداءه أكثر مما فكر ، فالخديو لا يرضى عنه ، والباحثون عن مجلس النواب يرونه عقبة فى سبيل تحقيق آمالهم ، وثقته فى بعض ضعاف العقول من الحكام نفرت الناس منه ، ومناوأته لأصحاب النفوذ من الأغنياء فضت الذوات عنه . حسب أنه قد استراح بعد خروج البارون من مصر ففوض ناظر الجهادية الجديد فى إزالة أسباب الشقاق المخيم فى المراكز العسكرية ، وما فطن إلى أن ناظر الجهادية ضالع مع الضباط فى الوطنية ، وأنه معجب بحركتهم يرى فيها تخليص البلاد مما تقاسى من كبت ، وما أن يتصل بهم حتى يصبح المدافع عنهم ، الساهر على أمنهم ، المحذر لهم مما يدبر لهم من مكايد ودسائس تنسج بين القصر والوزراء .

وراح الخديو يفكر فيما وقع ، فاستشعر أن فى الحادثة ما قد يمس سلطته ، وأن الضباط قد جنوا على مقامه ، فأصبح فى همين عظيمين بعد أن كان فى هم واحد ، وكان يرى فى رياض منافسا له ، وإذا بمنافس جديد أشد خطرا منه يظهر فى الميدان .

وكان توفيق بطبعه يميل إلى الجانب الأقوى ، فوطن النفس على أن يتقرب من الجيش ولو أنه قد جرح كبرياءه ، فأرسل إلى على بك فهمى أمير آلاى

الحرس وقال له :

ــ تعرف يا على بك مكانتك عندى ومقدار حبى لك وعطفى عليك ، إن ما وقع بالأمس لن يغير ما فى صدرى وأحب أن تنساه .

فقال على بك فهمى :

ــ إننا لا نطمع إلا فى رضا مولانا وعطفه .

ــ سأعفو عما مضى ، فادع جميع ضباط الآلاى إلى هنا .

وذهب على بك فهمى واستدعى جميع ضباط الآلاى إلى سراى عابدين ، واصطفوا أمام توفيق يقسمون للخديو يمين الطاعة والفداء ، وأقسم لهم الخديو يمين التأمين من كل عقوبة على ما مضى .

أحس عرابى أن الخديوى يريد أن يتخذ من هذه الفرقة من الجيش قوة يخيف بها ما بقى منه ، فإذا أراد الخديو أن يريح نفسه من عبد العال لم يستطع آلايه أن يفعل مثل ما فعل الآلاى الأول مع الضباط الثلاثة ، فإذا ما استراح من عبد العال انقض على عرابى يجهز عليه ، ثم إذا استراح من كليهما رجع على على فهمى وضباطه . فأراد عرابى أن يفسد عليه تدبيره فالتمس من الخديوى أن يدخل فيما دخل فيه على فهمى من يمين الأمان ، فوجد توفيق نفسه مضطرا إلى بذل هذا القسم ، فأقسم لعرابى يمين التأمين ، وإن كان صدره يتأجج بنار الحقد ويكاد يدمى من أظافر الغيرة التى كانت تنهشه .

أحس عرابى أن دخوله فى يمين الخديو لا يكفى فى وقايته فما كان يجهل قيمة الأيمان ، فأخذ يحتاط لنفسه ولإخوانه ، فأقام الحرس على بيته وبيوت مشاركيه ليلا ليحموهم من الغيلة المبتذلة فى أرض مصر .

٢٧

ذاع اسم عرابى بين الناس ، وراح الشعب يتحدث عن الفلاح الذى تحدى الحكومة فى إعجاب ، وأقبل كثير من الأعيان والمشايخ على الاتصال به ، فكان يحدثهم فى تواضع جم ، فجذبهم إليه بابتسامته العذبة ورقته الأصيلة وبيانه المتدفق الذى كانت قلوبهم تتفتح له .

أدرك الشعب أن عرابى واحد منهم فتركزت فيه كل آمالهم ، وكان أول فلاح منذ قرون يصعد إلى ذروة الشهرة السياسية ويثور فى وجه الظلم الذى ران على البلاد ، فخفقت له الأفئدة وهرع إليه المظلومون يبثونه آلامهم ، فهطلت عليه من أنحاء البلاد العرائض المفعمة بالشكوى والآمال فى العدل والنصفة والإحسان .

وأحس الجنود لأول مرة زهوا بأنفسهم ، فقد صاروا محط رعاية الأهل والصحاب كلما عادوا إلى قراهم فى إجازتهم ، كان الفلاحون يلتفون حولهم يسألونهم فى لهفة عما فعله عرابى فيقصون عليهم أنباءه فتنبثق الأمانى فى صدورهم ، فقد وجدوا فيه النبراس الهادى إلى طريق الخلاص .

وسار حامد فى طريق القرية مرفوع الرأس ، يحس العيون تصوب إليه وإن كانت الدنيا ظلاما فى ظلام ، وعرج على الدار وطرق بابها فى لهفة ، فهو فى شوق إلى أن يجلس إلى جده يروى لهم ما وقع فى قصر النيل ، وما جمعه من الجنود ومن أحاديث الناس ، وما كان ينمقه فى ذهنه طوال الطريق .

كان عمار يتحدث عن نوادره فى حرب الحبشة ، وكان يوسف كلما مر بالدار يستحوذ على لب الشيخ بما يدور بينهما من حديث عن الأزهر ، وكان حامد يلوذ بالصمت لا يجد جديدا يقصه ، أما الليلة فسيكون قطب الرحى ، وستصوب إليه العيون وترهف له الآذان .

وفتح الباب وندت من سعدية صيحة فرح ، ثم راحا يتصافحان والعيون تتحدث والقلوب تترنم بأهازيج الحب والهيام ، وانطلقا إلى حيث كان الشيخ ، فلما رأى حامدا تهللت أساريره وقام يعانقه فى ترحاب ، فاستشعر حامد غبطة ، كان جده يرحب به كلما عاد ، ولكنه يحس الليلة أن ترحيب جده فيه شيء من الإكبار .

ومد يده إلى عمار فراح عمار يشد عليها ، ويقول له وهو يفسح له مكانا إلى جواره :

ــ اجلس ، فإنى فى شوق إلى الأخبار .

وجلس حامد ، وراح يقص قصة اعتقال عرابى وعبد العال وعلى فهمى ، وكان كلما رأى العيون متعلقة به ينتشى وتتفتح أمامه مغاليق الأحاديث فيتدفق فى طلاقة حتى كاد ينكر نفسه ، وراح يقول :

ــ ... وأغلقوا عليهم باب السجن ، وأمر ناظر الجهادية الباخرة النيلية الراسية عند قصر النيل أن تستعد ، كان ناظر الجهادية يريد أن يحمل الضباط الثلاثة فيها ثم يلقيهم فى النيل ليتخلص منهم ، ولكن فرقة الحرس كانت فى هذه اللحظة تحطم أبواب القصر ، وكان الجنود المصريون يزحفون ليخرجوا عرابى وعبد العال وعلى فهمى ، فلما رأى الضباط الجراكسة الجنود المصريين فزعوا وهربوا من النوافذ فمنهم من جرح ومنهم من كسر ، وقفز ناظر الجهادية من الشباك وأخذ يجرى وهو مرعوب حتى وصل إلى سراى عابدين .



وفتح الباب وندت من سعدية صيحة فرح

فقال عمار فى غيظ :

ـــ عابدين .. يا خسارة . ليته وقع فى أيدى الجنود ، والله لو كان وقع فى يدي ما كنت أتركه قبل أن أجلده وأجرعه من الكأس المرة التى أرغمونا على شربها سنين .

فقال له الشيخ مداعبا .

ـــ نحمد الله أنك لم تكن هناك .

فقال عمار فى ثورة :

كل ما أرجوه أن نتمكن من أن نسومهم العذاب يوما ، وأن نذيقهم الظلم كما ظلمونا .

فقال الشيخ إبراهيم فى هدوء :

ـــ إننا لا نريد الظلم لأحد فإننا لا نحب الظلم ، وكل ما نطلبه أن لا يظلمنا أحد .

فقال عمار فى مرارة :

ـــ إنك لا تستطيع أن تعيش فى هذه الدنيا إلا ظالما أو مظلوما ، وإننى بعد أن ذقت طعم الظلم أفضل أن أكون ظالما من أن أكون مظلوما .

وقالت خديجة فى استسلام :

ـــ يا بخت من بات مغلوبا ولا بات غالبا .

فقالت سعدية لخالتها تداعبها :

ـــ يا بختك .

وابتمسوا جميعا ، حتى خديجة التمعت عيناها غبطة ورنت إلى عمار كأنما تقول له : أتسمع ؟.

واستأنف حامد حديثه قال :

ـــ وذهب عرابى وعبد العال وعلى فهمى إلى ثكنات الحرس ، وكان من رأى الرجل الأمريكى أن يطلب الجيش ليحاصروا الحرس الخديوى لإرغامه على تسليم عرابى ، ووافق الخديوى والجراكسة على هذه الفكرة وطلبوا الآلاى السودانى وأمروه بالحضور فورا ، ولكنهم علموا أن البكباشى خضر خضر ، وهو من أنصار عرابى ، قد خرج بالجنود بعد أن قبض على الضباط الكبار الذين قد يعارضون أوامرهم ، وسار بطريق البحر لإخراج عرابى وصاحبيه من السجن .

وخاف الخديوى ، فأرسل إلى البكباشى خضر خضر من يخبره أن الضباط الثلاثة قد خرجوا من السجن ، وأن الخديو يطلب منه أن يعود إلى طرة ، ولكن البكباشى قال لهم :

ـــ إنى لا أعود إلا بعد أن أراهم بعينى .

فقالوا له :

ـــ إذا سمعت ورجعت فالخديو سيعطيك المال والنياشين ، أما إذا أبيت إطاعة أوامره فقد يكلفك ذلك رأسك .

ولكن البكباشى رفض أن يصغى إليهم ، وسار حتى وصل إلى ساحة عابدين واطمأن على أصحابه .

واستمر حامد يتحدث والشيخ يعيره سمعه ، وسعدية تصغى إليه منتشية ، وعمار يعلق على ما يقول فى ثورة ، وخديجة معجبة بكل ما يقول زوجها

وما يفعل ، حتى إذا ما انقضى من الليل ثلثه قاموا جميعا ليسلموا جنوبهم للرقاد اللذيذ .

وأصبح الصباح فخرج الفلاحون إلى الحقول ، وبقى عمار وحامد فى الدار ، وأحس حامد حنانا إلى سعدية وإلى الساقية وإلى شجرة التوت ، فالتفت إلى عمار وقال له :

ــ ألا تأتى معى ؟

ــ إلى أين ؟

ــ إلى الحقل .

فلوى عمار شفته السفلى وبان فى وجهه الامتعاض فقال له حامد وهو يجذبه من يده :

ــ تعال .

وانطلقا يتجاذبان أطراف الحديث ، حتى إذا وصلا إلى الحقل وقفا تحت شجرة التوت ، وراح حامد يدير عينيه فى المكان فيستشعر حنانا ، كانت روحه تهفو إلى الشجر ، وإلى الساقية ، وإلى الأرض الطيبة ، فكل شىء حوله حبيب إلى نفسه ، وتحركت مشاعره حتى كادت الدموع تطفر من مقلتيه .

وجلس عمار على الأرض ، ونظر إلى الشيخ وإلى سعدية وإلى زوجه وقد غرقوا فى العمل ، ثم نظر إلى حامد وقال له :

ــ ألا تساعدهم ؟

فأفاق حامد من أحلامه واتسعت عيناه دهشا ، وقال له :

ــ ولماذا لا تساعدهم أنت ؟

وتغير وجه عمار ولكنه لم يغضب ، بل اكتسى بموجة من الأسى ، ثم نهض

وقال :

ــ يا طالما سألت نفسي هذا السؤال : لماذا لا أمد إلى هؤلاء الناس يدى ؟ إننى ما جئت إليهم إلا لأننى لم أجد أحدا يؤوينى غيرهم ولكننى أحببتهم لما عاشرتهم ، ورأيت أن من الواجب على أن أساعدهم ولكننى لم أقدر . إننى كلما رأيت ترعة أو فأسا أو مقطفا أو أرضا منزرعة شعرت بغثيان وبرأسى يدور ، إنك لا تدرى ما تحملته فى الجيش من ذل ومهانة . كانوا يأخذوننا إلى أراضى الخديو إسماعيل نعمل من شروق الشمس إلى غروبها فى شق الترع ، أو تمهيد الأرض ، أوجنى ثمارها والشمس ترسل أشعتها الحامية تكاد تشوى وجوهنا . والسياط تمزق أبداننا لتحثنا على العمل ، فما شقت هذه الترع إلا بدمائنا ، وقد روينا الأرض بعرقنا ، ورأينا أهوالا ، حتى إننى لم أعد أطيق إدامة النظر إلى المياه الجارية ، والأشجار الباسقة ، والحقول المثمرة . أصبحت كل أمانى أن أستلقى على الأرض وأن أغلق عينى حتى لا أرى ما يذكرنى بالأيام القاسية .

وأطرق عمار ولاذ بالصمت ، وظل حامد يرنو إليه مشدوها لا ينبس بكلمة ، ودار عمار على عقبيه وانصرف وحامد يتبعه بنظره ، وقد هز حديثه أوتار قلبه ، ولمحته سعدية فخفت إليه مسرورة ، فلما وجدته ساهما يرسل بصره خلف عمار قالت له :

ــ هل أغضبته ؟

فقال حامد فى رقة :

ــ لم أغضبه ولن أغضبه ، وأرجو ألا تغضبيه إكراما لى .

٢٨

تحركت الغيرة فى صدر توفيق لما رأى الناس يفزعون إلى عرابى يشكون إليه ما هم فيه ويرفعون إليه المظالم ، وأصبح فى حيرة لا يدرى أين يميل ، كان يشجع الجيش على الثورة فى وجه رياض ليتخلص من وزيره الذى يبغضه من كل قلبه ، ويتمنى أن يزول من طريقه ، ولكنه يرى نفوذ الجيش يتغلغل فى البلاد حتى بات خطرا على عرشه وسلطانه ، فوطن النفس على أن يدس لعرابى وأصحابه ، وعلى أن يكيد لرياض ، لعله ينجح فى أن يقضى على غرمائه ، وينجو بملكه الذى أصبح فى مهب الأعاصير .

و لم يكن الخديو صاحب شخصية قوية ليبرز فى ميدان الكفاح والنضال ، بل كان يميل بطبعه إلى تنفيذ مآربه بالكيد والدس فى الظلام ، فراح يجمع حاشيته وبعض رجال معيته ومن كان يختصهم من خدمه ، وأخذوا يقلبون وجوه الرأى بينهم ، فاستقر رأيهم على أن يعملوا جاهدين لفض الجنود عن ضباطهم ، حتى إذا ما أصدروا إليهم أمرا عصوه ولجوا فى العصيان .

وراح يوسف باشا كمال ناظر دائرة الخديو الخاصة يعمل لإنفاذ إرادة مولاه ، فأخذ يقرب منه صف ضابط من آلاى السودان ، وقد اختاره من الجراكسة الناقمين على حركة الفلاحين ، يدعوه إلى بيته ويبالغ فى إكرامه ، ويحرضه على أن يلوى العساكر والصف ضباط عن طاعة ضباطهم فيما يأمرونهم به إذا سيروهم إلى حادثة مثل حادثة قصر النيل ، وقال له :

ــ عليك أن تقنعهم بأن ضباطهم لا يريدون بهم خيرا ، فإذا صدر الأمر بنقل آلايهم أو غيره من كبار الضباط إلى آلاى آخر فعليهم أن لا يعارضوا فى ذلك ، وأن يقبلوا كل ضابط يعين لهم .

وانطلق الجركسى وقد أفعم بالفكرة إلى آلايه بطرة ، وراح يفكر فيما يفعله لإنفاذ ما عزم عليه ، فهداه تفكيره إلى أن يكتب عريضة يضمنها أن العساكر والصف ضباط لا يحبون ضباطهم ولا يريدون أن يكونوا تحت قيادتهم ، وإذا نقل أى واحد منهم إلى أية جهة فلا يعارضون أمرا من الأوامر التى تصدر بذلك ، وأعجبته الفكرة فأخذ ينفذها ، ولا غرو فقد كان جركسيا أحمق ..

أخذ العريضة وراح يمر بها على العساكر يطلب منهم أن يختموا عليها ، قائلا :

ــ حان أوان إنصافكم ، فحررت هذه العريضة وطلبت فيها زيادة المرتبات لكم ، اختموا .

وأسرع الجنود يختمون العريضة ، وتقدم حامد ليوقع عليها ، وراح يقرأ ما فيها فاربد وجهه ، ولمح الجركسى تغيره فأوجس خيفة ، وخطر له أن يخطفها ويمزقها ، ومد يده لينفذ الفكرة ويتخلص من أثر جريمته ولكن حامدا فطن إلى حركته فأخفاها وراء ظهره ليحميها ، وتأهب ليدفع الجركسى عنها إذا ما التجأ إلى العنف وحاول أن يأخذها منه عنوة ولكن ذهبت شجاعة الجركسى شعاعا ، واصفر وجهه وجحظت عيناه واصطكت أسنانه ، وكاد ينهار من الإعياء .

وانطلق حامد يعدو بالعريضة ، ودخل على البكباشى سليم أفندى الزبدى

وحياه ، ثم قال له وهو يقدم إليه العريضة :

ـــ وجدت باشجويشا جركسيا يجمع أختام الجنود على هذه العريضة .

وتناولها اليوزباشي وراح يقرؤها فثارت دماؤه فى عروقه ، وانطلق إلى عبد العال بك حلمى أمير الآلاى ودفعها إليه ، فلما قرأها أيقن أن حجاب الطمأنينة الذى يسدل على الجيش يشف عن كامن القلق والاضطراب ، فالدسائس تحاك ، والخناجر مختفية خلف الظهور وإن كانت الأيدى تتصافح .

وذهب عبد العال إلى قصر النيل وطلب مقابلة ناظر الجهادية ، فلما دخل عليه ، قدم إليه العريضة وقال له :

ـــ المكائد تحاك حولنا ، والدسائس تنسج فى كل مكان للبطش بنا ، إننا نريد أن نعرف منشأ هذا الفساد .

فقال محمود البارودى :

ـــ سأرفع هذه العريضة للخديو وأرى رأيه فيها .

ورفت على الشفاه ابتسامات كانت أبلغ من مقال .

ورفع محمود سامى باشا العريضة إلى الخديو فأظهر استياءه ، وأمر بإجراء تحقيق لإظهار الذين يعيثون فى الأرض فسادا !.

وحقق مع الباشجويش فاتضح أنه متزوج من جارية من جوارى السراى ، وأنه كان يحرض الجنود على التمرد ، وقد أخذ بعضهم إلى منزل يوسف باشا كمال الذى منح كلا منهم ثمانية جنيهات ، ووعدهم بتزويجهم من جوارى السراى .

واتضح أن يوسف باشا هو المحرك للفتنة ، فأصدر توفيق أمرا بفصله من

نظارة الدائرة السنية ، وقد حسب أنه بذلك الفصل قد ستر نفسه ونأى بها عن الشبهات ، ولكن الضباط كانوا على يقين من أن هذه الدسائس من وحى الخديو ، وهو المدبر لها والمشرف على إنفاذها ، لذلك راحوا يرقبون ما يفعله فى احتراس ، كانوا على ثقة من أنه لن يكف عن الدس لهم ، فإذا كان قد أخفق مرة فسيعاود الكرة مرات .

وترادفت دسائس الخديو ، وطغى رجال حاشيته ، فامتلأت نفوس الناس مرارة ، وراحوا يخوضون فى الخديو وبطانته يذكرونهم بالسوء ، ففسدت الصدور ، وأغلقت القلوب على كراهية الحاكم والحكومة .

وذهبت السيدة عائشة إلى القصر وراحت تبخر الخديو وتقرأ الأدعية وكانت تقوم بعملها فى فتور ، وقد فطن توفيق إلى صمتها فقال لها :

ــ ماذا يقول الناس عنى ؟.

فلجت عائشة فى الصمت ولم تنبس بكلمة ، فالتفت إليها الخديو وقال :

ــ لماذا هذا الصمت ؟.

ــ أرجو أن تعفينى .

ــ لماذا ؟.

ــ لأن ما سأقوله لن يسرك .

ــ قولى .

فصمتت السيدة عائشة قليلا ، ثم قضت على ترددها وقالت :

ــ يقول الناس إنك خيبت آمالهم فيك .

فاربد وجه توفيق ، وتدفق الدم حارا فى عروقه وضاق صدره ، وقال فى انفعال :

ـــ لماذا ؟.

ـــ وعدتهم أنك ستشركهم فى حكم بلادهم ثم عدت وتنكرت لوعدك ، وقربت منك بطانة أبيك مع أنك تعلم أنها بطانة سوء ، واستعنت برجال حاشيتك على حبك دسائسك .

فقال توفيق فى ثورة :

ـــ هذا كذب وافتراء .

فقالت السيدة عائشة فى هدوء :

ـــ بل هذا هو الحق ، إنك تظهر غير ما تبطن ، لماذا لا تقلع عما أنت فيه ؟ لماذا لا تمد يدك إلى شعبك وتتعاون معه وأنت صافى النفس ؟ لماذا كل هذه المكائد التى تدبرها فى الظلام ؟

وأخذته العزة بالإثم فصاح فى وجهها :

ـــ اخرسى .

ـــ كنت أوثر الصمت ولكنك أبيت إلا أن تسمع منى ما يقول الناس عنك ، فافتح أذنيك واسمع ، إنهم يكرهونك ، ويرون أنك لست أفضل من أبيك ، فافتح لهم صدرك يعطوك راضين مفاتيح قلوبهم ، وطهر سريرتك يمنحوك الثقة ويبادلونك إخلاصا بإخلاص .

وأعماه غضبه فقال فى إنفعال :

ـــ والله لن تدخلى على أبدا بعد اليوم ، بل لن تمكثى فى بلادى ، اخرجى منها .

فقالت السيدة عائشة وقد أولته ظهرها :

ـــ ربنا موجود .

ونفاها توفيق إلى جدة ، و لم يكتف بذلك النفى بل أصدر أمره بطرد زوج ابنتها الذى كان يعمل بالقصر انتقاما منها ، و لم يعده إلى خدمته إلا بعد أن طلق زوجته . و كانت هذه أول مرة خالف فيها توفيق طبعه وثار فى وجه محدثه ، فما كان قادرا على أن يقول لا أبدا ، ولكن لا عجب فى ذلك فقد ثار فى وجه إمرأة .

٢٩

كانت الليالى رمضان ، تكثر فيها الزيارات ؛ تتيسر الاجتماعات وتنتشر الشائعات ، ووجد عرابى فى رمضان فرصة ليكثر من زيارة سلطان باشا وطلبة باشا ومؤيديه من الرجال الكبار ، وبعد أن أقيل محمود سامى من نظارة الجهادية لميله لعرابى وحركته ، ومؤازرته والدفاع عنه كلما فكر الخديو أو الوزارة فى التخلص منه ، وعين داود باشا يكن ناظرا للجهادية ، الذى أصدر أوامره المشددة إلى الآلايات يلزم بها أمراءها وضباطها بأن لا يفارقوا مراكزهم العسكرية ، ويحظر بها على جمعهم ما اعتادوا عليه من الاجتماع فى المنازل والتردد على المحافل ، وكان يذهب بنفسه إلى الثكنات ليلا ونهارا ليرقب تنفيذ تلك الأوامر .

راح عرابى يحادث سلطان باشا ويدعوه إلى مؤازرته فى تشكيل مجلس النواب ، فأخذ سلطان باشا يفكر ، فرأى فيما يدعوه إليه عرابى فرصة فى أن تعلو كلمته فى البلاد على كلمة رياض باشا ، وأنه قد أتيحت له الظروف ليعيد نفوذه الشخصى فيمن دونه من عامة أهل بلاده ، وفطن إلى أن عرابى لا بد أن يصل إلى ما يريد يوما ، فمن الحزم أن يتفق معه فى البداية ليكون له النصيب الأوفى فى النهاية ، فمد يده إليه وواثقه على التعاون فى طلب مجلس الشورى ، وقال له :

ـــ سادعو أعيان الوجه القبلى والبحرى إلى المطالبة بمجلس النواب ،

وأحثهم على الاجتماع لتأليف وفد يطلب إلى رياض باشا ويلح عليه فى الطلب أن يستصدر من الخديو أمرا باستدعاء مجلس النواب ، وتخويله حق النظر فى وضع قانون يضمن له البسطة فى حقوقه ، حتى يكون كمجالس النيابات فى أوربا ، ثم يكون ذلك دستورا للبلاد تمضى عليه حكومتها .

وأقبل الشيخ محمد عبده واستأذن فى الدخول ، فلما سمع عرابى وبعض رفقائه اسمه انسحبوا من محل الاستقبال إلى محل آخر ، فقد كانوا يعرفون أن الشيخ من مناوئى حركتهم وأنه لا يؤيدهم ، وإن كان ثانى اثنين فتحا عيون الناس على حقوقهم ، وبغضاهم فى الاستبداد ، وعلماهم مزايا أن يكون الحكم شورى ، فقد كان له رأى وحده .

ومرت الأيام و لم يتمكن سلطان باشا من تأليف ذلك الوفد الذى وعد به عرابى ، و لم ير من الحزم أن يتولى الطلب بنفسه من رياض باشا خشية الخيبة ، فانقلب إلى عرابى وحالفه على أن يجمع له أعيان القطر من الوجهين البحرى والقبلى وعلماءه على تعضيد طلبه متى أزاح رياض باشا من طريقهم . و لم ينتظر سلطان ما تتمخض عنه الحوادث بل بارح مدينة القاهرة وتوجه إلى المنيا ، فإذا ما انتصر عرابى على أعدائه شارك سلطان فى جنى ثمار النصر ، أما إذا أخفق كان فى مأمنه بعيدا عن الانتقام والبطش .

وفى اليوم الثالث من العيد مر الشيخ محمد عبده ببيت طلبة باشا فسمع جلبة ، ورأى بعضا من صغار الضباط يجولون من جانب إلى آخر من البيت ، فدخل للزيارة ، فوجد عرابى وجمعا غفيرا من الضباط وأحد أساتذة المدرسة الحربية . فجلس ، واستمر الحديث فى وجهته ، قال عرابى :

ـــ لابد من تقييد الحكومة بمجلس النواب ، وأن لا سبيل للأمن على

الأرواح والأموال إلا بتحويل الحكومة إلى مقيدة دستورية ، فقد آن الأوان للتخلص من الاستبداد .

فقال الشيخ محمد عبده :

— علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بضع سنين ، وأن نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع ، وأن نبدأ بترغيبها فى استشارة الأهالى فى بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ، ويكون ذلك كله تمهيدا لما يراد من تقييد الحكومة ، ليس من اللائق أن نفاجىء البلاد بأمر قبل أن نستعد له ، فيكون من قبيل تسليم المال للناشىء قبل بلوغ سن الرشد ، يفسد المال ويقضى إلى الهلكة .

فقال عرابى فى حماسة :

— البلاد مستعدة لتشارك الحكومة فى إدارة شئونها ، والله لا أدرى هل عقمت مصر ؟ إن فيها العلماء والنبهاء والحكماء .

فقال الشيخ محمد عبده فى هدوء :

— لو فرض أن البلاد مستعدة لأن تشارك الحكومة فى إدارة شئونها ، فطلب ذلك بالقوة غير مشروع ، ولو تم لك ما تسعى إليه ونالت البلاد مجلس شورى ، لكان بناء على أساس غير شرعى ، فلا يلبث أن يتهدم ويزول ، وأرى أن هذا الشغب قد يجر إلى البلاد احتلالا أجنبيا يستدعى تسجيل اللعنة على مسببه إلى يوم القيامة .

فتبسم عرابى ابتسامة الساخط وقال :

— أبذل جهدى فى أن لا أكون مورد هذه اللعنة ، وليس الجند هو الطالب لتشكيل مجلس النواب ، وإنما هو مؤيد لطلب الأعيان ووجوه البلاد .



علينا أن نهتم بالتربية والتعليم بضع سنين

فقال الشيخ محمد عبده :

ـــ وعلى من تعتمد ؟ وممن أخذت الميثاق على ذلك ؟.

فهمس عرابى إليه بصوت خافت :

ـــ إن سلطان باشا قد عاهدنى على أن يجمع أعيان القطر من الوجهين ليتقدموا بالطلب متى سقطت وزارة رياض باشا .

كان أهالى البلاد يؤيدون عرابى ، وأرباب الكلمة فيها معه ، فإذا ما طلب تشكيل مجلس النواب فإنما يضع نفسه ومن معه من الضباط وموضع الآلة المنفذة لرغبة الأمة ، فإذا ما ثار فى وجه الحكومة فإنما يثور للأمة ، وكل ما تأتى به الأمة فى سبيل حريتها وتقويم ما اعوج من حكومتها مشروع ، لا يصادف منكرا ، فراح عرابى يصل ليله بنهاره فى التفكير والتدبير ، ليثور ثورة الأمة .

٣٠

قضيت صلاة العشاء فعاد الشيخ إبراهيم الى الدار ، فألفى حامدا وسعدية وخديجة وعمارا يتسامرون فجلس يصغى إلى ما يقولون ، فإذا بعمار يقص نوادره ، وحامد يقص نوادره ، وحامد يصغى إليه مشرق الوجه ، وسعدية مقبلة عليه لا تضيق به ولا تتبرم ، فقد روضت نفسها على أن لا تبغضه فألفته طيب القلب خفيف الظل ، وإن ظل على عهده به ليس له عمل ظاهر فى البيت إلا أن يتحدث.

وكانت خديجة ترنو إليه فى وجد ويتألق فى عينيها بريق الحب ، فقد أحبته من صميم فؤادها ، ظنت بعد فرار علوان منها أنها ستعيش ما بقى من عمرها تندبه وتتحسر على لياليه المترعة بالنشوة ، فإذا بعمار ينسيها علوان ومن سبقه من أزواجها .

ورفت على شفتى عمار بسمة ، واعتدل فى جلسته يتأهب أن يلقى نادرة تذكرها وقال :

ـــ كنت جنديا فى الآلاى الثالث ، وكان اليوزباشى الألفى يكلفنى بأعمال قاسية ، وكان يرانى والعرق يتصبب منى وأنا ألتقط نفسى فى جهد فلا يرق قلبه لى ويشجعنى بكلمة ، بل كان يقول فى سخرية واستخفاف : فلاح حمار . كان اضطهاده لى يحز فى نفسى حتى إنى فكرت مرة أن أثور فى وجهه . ولكنى تذكرت الكرباج فانكمشت ، وتجرعت إهاناته المرة وأنا صابر كاظم الغيظ . واشتهر أمر هذا الاضطهاد فى الآلاى .

وفى ذات يوم ، جاء إلى بعض صف الضباط وقالوا لى :

ـــ أتحب أن تستريح من اضطهاد حضرة اليوزباشى ، وأن يرضى عنك ؟

فقلت لهم :

ـــ لا أشتهى فى الحياة شيئا أكثر من هذا ، ليته يرضى عنى لا رضى الله عنه .

فقالوا لى :

ـــ ادخل عليه وحيه ، وقل له : « عقلز تورك » .

فقلت لهم :

ـــ ما معنى هذا ؟

فقالوا لى :

ـــ معناه : أنت تركى عظيم .

فقلت لهم مدهوشا :

ـــ ولماذا لا أقول له ذلك بالعربى .

فقالوا فى تحذير :

ـــ إياك أن تقول له شيئا بالعربى ، فهو يكره أن يسمع كلمة عربية ، ولكنك إذا قلت له هذا المديح بالتركى سرت نفسه ورضى عنك وقربك منه ، لأنك تحاول أن تمجد لغته وتتكلم بها .

واستولت على الفكرة ، كنت فى كرب وضيق ، و لم أجد بأسا فى أن أتملقه وإن كنت فى قرارة نفسى أمقته وأحتقره ، فانطلقت إلى مكتبه وأنا أردد فى سرى : عقلز تورك .. عقلز تورك .. حتى لا أنساها ، ودخلت عليه وحييته فى شهامة ، وضربت كعب الحذاء بكعب الحذاء فى قوة ، وقلت له فى صوت متهدج :

ـــ عقلز تورك يا أفندم .

فقفز على كرسيه كأنما قد وخزته إبرة ، واحمر وجهه ، وفى مثل لمح البصر ألقى بما وصلت إليه يده فى وجهى ، وانفجر صائحا :

ـــ فلاح حمار ابن كلب .

وذهلت ، وتسمرت فى مكانى مشدوها لا أدرى ما الذى أحنقه على ، وبقيت فى حيرة من أمرى لأننى لم أعرف علة غضبه ، وأخيرا اتضح لعينى كل شيء لما صدرت الأوامر بجلدى ، لأننى أهنت حضرة اليوزباشى بأن اقتحمت عليه مكتبه وصحت فى وجهه : تركى بلا مخ أفندم . غرروا بى ليضحكوا ،

وقد ضحكوا ولكن سرعان ما قطبوا جباههم وندموا على ما فعلوا لما رأونى أتلوى من السياط وأتأوه .

وابتسمت سعدية ، فقالت لها خديجة عاتبة :

ـــ أتضحكين ؟!.

فقال الشيخ إبراهيم وهو يهز رأسه :

ـــ شر البلية ما يضحك ..

ثم التفت إلى حامد وقال :

ـــ متى تسافر ؟

ـــ غدا فى الفجر ، فقد انتهت إجازة العيد .

وسمع طرق على الباب ، فنهض حامد يفتح فألفى يوسف لدى الباب ، فقاده إلى المصطبة ، ثم ذهب إلى جده وقال له :

ـــ يوسف جاء يسأل عنك .

وإذا به دون أن يدرى يرنو إلى سعدية ويضيق صدره وتتدفق دماؤه حارة إلى وجهه ، وفطن إلى ما اعتراه فأطرق برأسه ، وجلس منطويا على نفسه وقد لاذ بالصمت .

ودخل الشيخ متهلل الوجه ، وصافح يوسف فى ترحيب وهو يقول له مداعبا :

ـــ كيف حال شيخنا الصغير ؟.

ـــ الحمد لله .

وأطرق قليلا فى ارتباك ، ففطن الشيخ إلى أنه يريد أن يفضى إليه بشىء فقال :

— خيرا ؟!.

فقال يوسف فى صوت متهدج وقد صعدت الدماء إلى وجهه :

— عزمت على أتزوج ، ولما كان يشرفنى أن أصاهركم فقد فكرت أن أرسل أبى يخطب لى سعدية ، ولكننى عدت وفضلت أن آتى إليك وأطلبها بنفسى .

وأحس الشيخ لأول مرة اضطرابا ، كان ما يقوله يوسف مفاجأة له ، فصمت قليلا يستجمع شتات أفكاره ، ثم قال فى أناة :

— يسرنى يا بنى أن أزواجك من سعدية ، فغاية أملى أن أراها فى بيت زوجها قبل أن أموت .

فقال يوسف فى سرور :

— أشكر لك عطفك على .

فقال له الشيخ فى هدوء :

— قلت لك رأيى ، ولكن لا بد لنا أن نسمع رأيها فى الأمر .

وقام الشيخ إلى حيث كانت سعدية وخديجة وعمار وحامد جالسين ، وقال :

— جاء يوسف يخطبك لنفسه يا سعدية ، فما رأيك ؟

وساد الصمت ، ونبتت فى الصدور مشاعر متباينة ، أحس حامد عقارب الغيرة تلسع صدره ، وشعر لأول مرة أنه غريب ، فلم يقو على أن يعبر عن إحساساته فانسل من المكان وراح يصعد فى السلم إلى سطح الدار ليختفى فى الظلام عن العيون . وشعرت خديجة بنشوة تملأ جوفها ، فحديث الزواج يدغدغ حواسها ، وأرهفت مشاعر عمار وفتح أذنيه يصغى إلى ما يدور أمام عينيه ، قال الشيخ يقطع هذا السكون :

ـــ سكوت البنت رضا .

فقالت سعدية فى انفعال :

ـــ لا أريد أن أتزوج .

فقالت خديجة فى دهش :

ـــ شاب مثل يوسف يأتى إليك بنفسه ليخطبك فترفضينه ؟ والله إن أمرك عجب . لو جاء يطلبنى ما رفضته .

فقال عمار فى غضب :

ـــ ماذا تقولين .

فقالت خديجة وقد سرها غضبه :

ـــ أقصد أنه لو كان جاءنى قبل أن أقابلك ما رفضته .

فقال الشيخ فى ضيق :

ـــ إننا لا نسألك رأيك ، نريد أن نسمع رأى سعدية ، لماذا لا تريدينه ؟.

فقالت سعدية وقد أسبلت جفونها على عينيها :

ـــ لا أريد أن أتزوج الآن .

وانسل الشيخ إبراهيم من المكان ، وراحت خديجة تؤنب سعدية :

ـــ ما هذا العبط ؟ ترفضين رجلا أتى بنفسه يطلبك ؟! أنت مجنونة والله لن أصدق أن عقلك سليم .

وقامت سعدية وهرعت إلى السلم وراحت تصعد فيه ، وصوت مكبوت يدوى فى جوفها :

« حامد .. حامد » ولم تقو على كبح جماح عواطفها فانهمرت دموعها تغسل وجهها .

وعاد الشيخ وقد عبرت وجهه سحابة من الأسى ، فقالت له خديجة :

ـــ ماذا قلت له ؟

فقال الشيخ وهو يتلفت فى المكان :

ـــ قلت له من الأفضل أن يتريث حتى يتم تعليمه .. أين سعدية ؟.. أين حامد ؟.

فقال عمار وهو يبتسم :

ـــ فوق السطح يبكيان .

فأشرق وجه الشيخ وغمغم فى راحة :

ـــ لم أكن أعلم .

وسار صوب السلم ونادى :

ـــ حامد .. حامد ..

وهبط حامد وذهب إلى جده و لم يرفع عينيه إلى وجهه ، فقال الشيخ وهو يضمه إليه :

ـــ لماذا لم تقل لى ؟ لماذا ؟.

فقال حامد فى انفعال :

ـــ والله لن أضع يدى فى يد يوسف بعد اليوم .

فقال الشيخ :

ـــ إنه لم يأت جرما ، قد أكرمنا لما جاء يخطب ابنتنا .

فقال حامد فى ثورة :

ـــ كيف يجرؤ على أن يخطبها وأنا فى الدار ؟ لن أغفرها له أبدا .

وأطلقت خديجة زغرودة دوت فى المكان ، فأسرعت سعدية هابطة فلما

رآها جدها قال فى حنان دافق :

ـــ تعالى ..

وتقدمت على استحياء تتعثر فى ذيل ثوبها ، فلف ذراعه حولها ولف ذراعه الأخرى حول حامد ، وضمهما إلى صدره وقد غامت عيناه بالدموع .

٣١

سافر الخديو إلى مصيفه وقد أقلقه ارتفاع ذكر عرابى وأصحابه فراح يدبر وهو فى الإسكندرية بعيدا عن عاصمة ملكه ما يقضى به على هذه المنافسة الجديدة التى أطلت بخطمها ، لكأنما لم يكن يكفيه منافسة رياض .

وتلفت حوله فلم يجد قوة يعتمد عليها فى مقاومة الجيش إلا الجيش ، فلو أنه تمكن من أن يبث بين صفوف الجنود الانقسام لسهل عليه أن يضرب بعضهم ببعض ، ولنجا بعرشه من المخاطر التى تكتنفه ، والأهوال التى تحيق به .

وقر رأيه على أن يدنى منه على فهمى أمير حرسه ، وأن يسبغ عليه عطفه ، ويشمله برعايته ، فهو يعتقد أنه أقرب الضباط الثلاثة إليه ، فلو أنه من الفلاحين إلا أن زوجته تركية ، وقد أمضى مدة طويلة فى خدمة القصر ، كل هذا ييسر له أن يطويه تحت جناحه ، وأن يستغله فى تحقيق مآربه .

وراح يدعو على فهمى إلى مجالسه الخاصة ، ويتودد إليه ويمنيه الأمانى ، وبالغ فى رعايته حتى بلغ عرابى والضباط الملتفين حوله أن الجناب الخديو

استمال آلاى الحرس وأميره ، وعاهده على أن يكون قوة تقضى على من يخالف الأوامر من بقية الآلايات .

وتبلبلت الخواطر ، ونزل القلق بصدور الضباط وباتوا فى حيرة فما كانو بقادرين على أن يصدقوا أن على فهمى قد انضم إلى المعسكر الآخر ، وما كانوا بقادرين على أن يكذبوا الأنباء الوافدة المتلاحقة فى إصرار، فرأوا أن يرقبوا ما تأتى به الأيام فى حذر واحتراس .

وطفق توفيق يعد العدة لمغالبة من يستعصى عليه من جنوده ، فأرسل إلى أمير الآلاى الخامس ، الذى كان مقيما « بباب شرقى » بالإسكندرية ، وفتح له قلبه وأبدى له حبه ، وأخذ يغريه على أن يكون له عضدا إذا ما ثار عليه جنده ، فسر أمير الآلاى الخامس أن يكون مقربا من الخديوى ، وعاهده على أن يكون له طوع بنانه ، والآلة المنفذة لرغباته ، ولو كان فى ذلك تمكين للظلم ، وبسط لسلطان الفساد والاستبداد .

وعاد توفيق إلى عاصمة ملكه وقد دبر ما دبر ، وقد عزم على أن ينفذ مؤامرته التى أمضى فصل الصيف فى نسج خيوطها فى صبر وأناة ، لعل السحب التى تتلبد فوق عرشه تنقشع ، ولعل القلق النازل بصدره يتبدد ، ولعل شمس صفوه تشرق بعد طول احتجاب .

وأصدر داود باشا يكن صهر الخديو وناظر الجهادية أمرا بنقل الآلاى الثالث المقيم بقلعة المعز بالقاهرة ، إلى الإسكندرية ، وأن يؤتى بالآلاى الخامس إلى مصر بدلا عنه ليكون فى القاهرة آلايات تحت طاعة الخديوى ينفذان أمره ، إذا ما تحرك الخطر وهبت الأنواء .

اضطرب ضباط الآلاى الثالث وأوجسوا خيفة ، وفطنوا إلى أن الحكومة

تريد أن تنتقم منهم ، وراحوا يتهامسون أن فى النية إغراقهم فى كوبرى كفر الزيات ، ووقر فى أذهانهم صحة كل ما توسوس به المخاوف فقد كانوا جميعا يذكرون كيف أغرق الأمير حليم والأمير أحمد باشا ابن إبراهيم باشا فى عهد سعيد ، فى كوبرى كفر الزيات !.

وأسرع ضابطان من الآلاى الثالث إلى عرابى وبثاه مخاوفهما ففطن إلى ما يدبر لهم فى الخفاء ، فأمر الرسولين أن ينادیا فى ضباط آلاى القلعة بعدم التسليم ، وبالإقامة فى مواقعهم ، وأن يمسكوا من يأتى إليهم .

واجتمع عرابى والضباط الملتفون حوله وراحوا يتذاكرون فى الموقف فوجدوا أن الحكومة تماطلهم فى تنفيذ ما طلبوا ، فما ألف مجلس النواب ، ولا صدق على القوانين العسكرية ، ولا هدأت الدسائس التى كانت تنسج للإيقاع بهم ، فقر رأيهم على القيام بمظاهرة عسكرية تطالب بحقوق الشعب الذى أنابهم عنه ، فقد بعث العلماء والأعيان وعمد البلاد ومشايخ العربان إلى عرابى التوكيلات ليكون نائبا عنهم فى كل ما يتعلق بأحوال البلاد ، كانوا متعطشين إلى حياة الحرية ، فوجدوا فيه خير من يخلصهم من الظلم والطغيان .

وراحت الإشارات العسكرية تتبادل بين الآلايات ، كان عرابى يأمرهم أن يتأهبوا للذهاب إلى ميدان عابدين فى الساعة التاسعة لعرض طلباتهم على الخديوى . وأرسل إلى قناصل الدول يؤكد لهم أن الغاية من جمهرة الجند داخلية محضة لطلب أمور عادلة ، فليكونوا مطمئنين على أرواح رعاياهم وأعراضهم .

وبلغ ناظر الجهادية كتاب عرابى الذى أبلغه فيه أن جميع الآلايات ستتوجه إلى ميدان عابدين لعرض مطالب تتعلق بإصلاح وضمان مستقبلها ، ففزع

وخف إلى توفيق يبلغه رسالة عرابى ، فانزعج الخديو ، وأرسل فى استدعاء رياض باشاوخيرى باشا وستون باشا الأمريكى ، وراحوا يقلبون وجوه الرأى ، فأجمعوا على أن خير رأى أن يذهب الخديو ووزيره إلى الجند ، و لم يكن أمام الخديو فسحة من الوقت ، فانطلق مع رياض إلى ثكنات عابدين ، وجمع الضباط وقال لهم :

ـــ أنتم أبنائى وحرسى الخاص ، فلا تقتدوا بأعمال الآلايات الأخرى .

فصاحوا جميعا :

ـــ نحن جميعا فداء لولى نعمتنا .

فاستدعى توفيق على بك فهمى وقال له :

ـــ وزع العساكر داخل السراى ، وأقمهم على نوافذها ليقوها من الهاجمين عليها .

وانطلق الخديو ووزيره إلى القلعة ، وراح على فهمى يوزع الجنود فى الغرف العليا ، بحيث يشرفون على الميدان ويطلقون النيران على المتظاهرين وهم فى مأمن .

وبلغ الخديو القلعة والآلاى يتأهب للسير ، فطلب الضباط وقال لهم :

ـــ ما الذى حملكم على مخالفة الأمر الصادر لكم ؟ لقد صدرت الأوامر بأن لا تغادروا أماكنكم .

ـــ إننا لا نخالف أمرا .

فالتفت إلى أمير الآلاى وقال له :

ـــ لماذا امتنعتم عن تسليم المخافر ؟

فقال أمير الآلاى فى اضطراب :

— لم نفعل . إن فودة بك حسن هو الذى أغرى الضباط بالمخالفة ، ومنعهم من التسليم .

وكان فودة بك يقف بالقرب من رياض باشا ، فجذبه من طوقه وأمر بإلقاء القبض عليه وقال له :

— مثلك يقاوم أوامر الحكومة ويمنع تنفيذها ؟.

وأمر اليوزباشي محمد أفندى السيد البروجيه يضرب نوبة « سونكى ديك » ، فأسرعت العساكر إلى تركيب الحراب على البنادق ، وأحاطوا بالخديو ورئيس النظار وصاحوا :

— أطلق البكباشي .. أطلق البكباشي .

فالتفت الخديو إلى رياض باشا وقال له :

— أطلقه ..

ووجد توفيق أن الشدة لن تجدى فتيلا ، فرأى أن يستعمل اللين فقال لهم :

— ألست خديويكم ؟ ألست ولى أمركم ؟ هل تأخر لأحد منكم راتب ؟ أو نقصت له مؤنة ؟ أو حرم من حقه فى ملبس ؟ فلماذا جهرتم بالعصيان وخالفتم أوامرى ؟.

فقالوا له :

— لأن الغاية من الأمر بسفرنا هو إغراقنا فى البحر عند مرورنا فوق كوبرى كفر الزيات .

وأشار رياض على الخديو أن ينطلق إلى العباسية لمقابلة عرابى فى ثكناته ومخاطبته وتحذيره من قيادة مظاهرته ، فاتجهت عربات الخديوى والقواد الجراكسة صوب العباسية ، فلما بلغوها لم يجدوا بها أحدا ، فقد خرج عرابى

بقواته يجد السير فى الحسينية ، ليحاصر عابدين ويرغم حكام مصر المستبدين أن يستجيبوا مرغمين لطلبات الشعب العادلة .

وسأل الخديو فى لهفة :

ــ أين عرابى ؟.

ــ ذهب بجنده إلى عابدين .

ــ والمدفعية ؟.

ــ ذهبت معه .

وعلا وجوه السادة غبرة ، وانطلقوا مهطعين لعلهم يقدرون على إعادة الموقف إلى أيديهم بعد أن أفلت منهم .

وجاء آلاى السوارى تحت قيادة أحمد عبد الغفار وانتشر فى الميدان ووصل عرابى يقود آلايه ، ومعه آلاى المدفعية تتخلل بطاريات مدافعه فرق العساكر ، وهو ممتط جواده ، شاهر سيفه ، يحيط به عشرة من ضباطه شاهرى السيوف كحرس له .

وهرع بعض الضباط إليه وقالوا له :

ــ قد أدخل على فهمى عساكره فى السراى للدفاع عنها إذا دعت الحال ، قد ادخر كمية وافرة مما يحتاج إليه لذلك .

قطب عرابى جبينه ولاح فى وجهه الغضب ، وقال :

ــ على به .

وجاء على فهمى إلى الميدان ، فصاح به عرابى :

ــ أنت الذى تحمى القصر من إخوانك ؟ هذه خيانة .

فقال على فهمى معتذرا :

— ما فعلت إلا مداراة منى للخديو ، فالسياسة خدعة .

ثم أمر بالنداء فى الآلاى بالنزول ، فنزلت العساكر جميعا ، واصطفت فى الساحة مع بقية الجنود .

واسرعت الجماهير تقف خلف الجند ، فقد جاءوا فرحين يؤيدون حركة الجيش ويشاهدون جهاد أبنائهم لانتزاع حقوقهم من بين براثن السلطة الطاغية ، وبلغ الخديو ومن معه ساحة عابدين فوجدها غاصة بالعساكر من كل فريق ، المدفعية والفرسان أمام الباب الغربى ، وعرابى وجنوده أمام باب القصر الكبير ، فدخلوا من الباب الشرقى .

وخف القناصل ومستشارو الحكومة ونظارها إلى السراى ، وخلا الخديو بالقناصل يستمد منهم الرأى ، فقال له كلفن المراقب المالى البريطانى :

— استدعه وحادثه ثم اضربه بالرصاص بيدك ، تقتل هذه الفتنة .

وقال كوكسن القنصل البريطانى بالإسكندرية ، القائم بأعمال السير ماليت قنصل إنجلترا الغائب فى إجازة :

— ليس هناك حل إلا عزل رياض باشا .

وأشرف توفيق على الجند وقد التف حوله المستر كوكسن وقناصل الدول ، وأمر بإحضار عرابى ، فذهب إليه راكبا جواده سالا سيفه ، يحيط به ضباط السوارى ، فقال له توفيق :

— ترجل ..

فنزل عن جواده وسيفه مشهور ، فقال له :

— اغمد سيفك .

ففعل ، فقال توفيق :

— أبعد الضباط عنك .

وخشى الضباط الخيانة ، فوقف بعضهم بين الخديو وبين القصر ليحولوا بينه وبين الفرار إذا ما لاحت بادرة خيانة ، وراح توفيق يقول له :

— ألم أك سيدك ومولاك ؟ ألست أنا الذى رقيتك إلى رتبة أمير آلاى ؟.

— نعم .

— لم حضرت بالجند إلى هنا ؟.

— جئنا يا مولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة وكلها طلبات عادلة .

— وما هى هذه الطلبات ؟

— هى إسقاط الوزارة المستبدة ، وتأليف مجلس النواب ، وإبلاغ الجيش إلى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية ، والتصديق على القوانين العسكرية التى أمرتم بوضعها .

— كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى ، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا .

فثار الدم فى عروق عرابى وقال فى انفعال :

— لقد خلقنا الله أحرارا ، ولم يخلقنا تراثا وعقارا ، فوالله الذى لا إله إلا هو سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم .

فقال المستر كوكسن للخديو :

— أرى أن تعودوا إلى القصر فإنى أخشى عليك سوءا .

وعاد الخديو ومرافقوه إلى القصر ، ثم جاء المستر كوكسن والمستر كلفن إلى عرابى وراحا يجادلانه فى مطالبه ، قال كوكسن :

— إن عزل الوزارة من خصائص الخديو ، وطلب تشكيل مجلس النواب من حقوق الأمة لا الجند ، ولا ضرورة لزيادة عدد الجيش فإن البلاد آمنة مطمئنة ، وليس فى الأمم من يريدها بسوء ، أما التصديق على قانون العسكرية فسيكون بعد اطلاع الوزراء عليه .

فقال عرابى :

— يا حضرة القنصل ، إن ما يتعلق بالأهالى من هذه المطالب لم أنهض إليه إلا بالنيابة عنهم ، فقد أقامونى نائبا عنهم فى طلبه وتنفيذه بوساطة هذه العساكر الذين هم أبناؤهم وإخوانهم ، واعلم أننا لا نفارق هذا المكان ما لم تنفذ جميع تلك الرغائب التى أبديتها .

قال كوكسن فى تهديد :

— تصرح بأنك تريد الوصول إلى ما تطلب بالقوة ، وهذه هى الهمجية التى تجر الخطر إلى بلادك ، وربما تفضى إلى ضياعها .

فقال عرابى :

— وكيف ذلك ؟ ومن الذى يعارضنا فى شئون داخليتنا ؟ ولئن تحرش لذلك أحد فاعلم أننا نقاومه بكل ما لدينا من الحول والقوة ، ولو أدى ذلك إلى فنائنا عن آخرنا .

— وأين تلك القوة التى تكافح بها وتناضل عن بلادك ؟.

— أستطيع أن أحشد فى زمن قصير مليونا من العساكر كلهم يسمعون قولى ويتبعون إشارتى ، فإن كانت دولة إنجلترا هى التى تستعد لخصامنا ، فلتكن على حذر من ثورة عامة فى الهند تقضى على حياتها فيه .

— وماذا تفعل لو لم تجب على طلبك ؟

— كلمة واحدة أقولها .

— ما هى ؟.

— أقولها عند اليأس والقنوط .

وانقطعت المخابرات ، وساد القلق نفوس المجتمعين فى السراى يتباحثون فى الأمر ، وكلما تصرم الوقت استولى الضعف على الوزراء والقناصل والخديو ، ثم خرج كوكسن إلى عرابى وقال له :

— وافق الخديو على طلباتكم ، وستنفذ بالتدريج ، وهو يرغب فى تعيين حيدر باشا بدلا من رياض .

فلم يوافق عرابى ، فحيدر باشا صهر الخديو وابن عمه ، فقال له كوكسن :

— فمن تريد أن يخلف رياض باشا ؟.

— شريف باشا ، فهو من أنصار إنشاء مجلس النواب .

ولف الليل الكون فى عباءته السوداء ، وأهازيج النصر تصدح فى قلوب الشعب ، وانسل الخديو إلى قصر الإسماعيلية ، وبعث إلى عرابى فذهب إليه ، ودخل عليه وقال :

— أشكر لولى النعم موافقته على مطالبنا .

كان الخديو يحس قهرا ويشعر بطعم الصاب فى فمه ، ولكنه لم يفارقه طبعه فقال فى تخاذل :

— أقسم بالله أننى مرتاح لما فعلت ، وأننى وافقت على تلك الطلبات بنية صافية .

— نشكر لمولانا صادق شعوره ، أدامه الله لنا ذخرا وملاذا .

فقال له توفيق قبل أن ينصرف :

ــ اذهب الآن واجل عن عابدين .

وصمت قليلا ثم قال :

ــ أجل عن عابدين ، ولا ترافق الجنود موسيقاها فى الشوارع .

وخرج عرابى يأمر جنوده بالعودة إلى ثكناتهم ، وكان الفرح يهز الناس هزا ، فقد كانوا يتعانقون فى الطرقات فرحا على غير تعارف ، ويبتهجون بالعهد الجديد الذى أشرق عليهم بعد ليل مدلهم طويل .

٣٢

راح الطلبة يتدفقون على الأزهر من كل فج ، فغصت بهم طرق الحسين وخان الخليلى والجمالية والصنادقية والدراسة ، وطفقوا يتحدثون وقد لاحت فى وجوههم الحماسة ، فقد سرت فى صدورهم آمال العهد الجديد .

وانطلق يوسف وبعض رفاقه فى طريق النحاسين الضيق ، تحف به المبانى العربية بشرفاتها ، والمساجد الشامخة بمآذنها العالية ، وطفقوا يتكلمون فى حرية دون أن يتلفتوا أو يهمسوا بالحديث ، فما عادوا يخشون دس الجواسيس أو بطش البوليس .

قال قائل منهم :

ــ هل يفى الخديو بوعده ؟ لقد وعد بالدستور فهل ينزل حقيقة عن السلطة لوزراء مسئولين أمام المجلس ؟.

فقال آخر :

ـــ لا أظن ، فلن تخرج المسألة عن دعوة جماعة من الأعيان يكون لهم رأى استشارى .

فقال يوسف فى حماسة :

ـــ أظن سيفى بوعده هذه المرة ، سيمنحنا الدستور مرغما .

ـــ القنصل الإنجليزى يغريه أن يحنث بوعده .

ـــ لن يستطيع النكوص ما لم يجد تأييدا من أكثر من جهة .

ـــ إن أكثر من جهة تغريه بالحنث بوعده ، لقد قال القنصل الإنجليزى إن السلطان لا يوافق على منح الشعب دستورا حقيقيا .

ـــ من أدرانا أن السلطان قال ذلك ؟

ـــ هذا حق ، فلا غرابة فيه ، فالسلطان عبد الحميد من ألد أعداء الدساتير .

فقال يوسف فى صوت عال :

ـــ إننى أعجب لماذا نتمسك بهذا السلطان ؟.

فقال له أحدهم :

ـــ لأنه خليفة المسلمين .

فقال يوسف :

ـــ ولماذا يكون خليفة المسلمين تركيا ؟ إننى أريدها خلافة عربية خالصة .

فقال له أحدهم ليخفض صوته :

ـــ هس .

فقال يوسف فى غضب :

ــ لماذا أسكت أو أخفض صوتى ؟.

ــ ألم تسمع ماذا قال عرابى عن السلطان ؟ قال : كلنا أبناء السلطان ، ويجب علينا أن نعيش كأسرة فى منزل ، وكما أن أعضاء الأسرة الواحدة يكون لكل منهم غرفة ينظمها حسب ما يهوى ، ولا يحق لرب البيت أن يستبيح حرمتها ، كذلك لكل شعب من الشعوب الإسلامية بلاد يعيش فيها وينظمها على ما يحب ويهوى ، وقد كسبت مصر استقلالها بالفرامانات وسنبذل كل جهدنا فى المحافظة على ذلك الاستقلال ، ولكننا نخطىء إذا طلبنا أكثر من ذلك ، ولا يبعد أن نفقد حريتنا فى مثل هذه المجازفة .

فقال يوسف فى ضيق :

ــ أليس من حقى أن أبدى رأيى ولو خالف رأى عرابى ؟!

فصمتوا ، كانوا حديثى عهد بالحرية وإن كانت نار الثورة فى صدورهم تتأجج ، فقال أحدهم ليغير مجرى الحديث :

ــ إننى أتطلع لذلك اليوم الذى نتخلص فيه من المراقبة الأوربية الظالمة كما تخلصنا من ظلم الحكومة ، لماذا تعفى الأوروبيين من الضرائب وتلقى العبء كله على الوطنيين ؟.

ــ لأنها أوروبية .

فقال يوسف :

ــ ولأننا نطاطىء رءوسنا للأجانب ، نقاسى شظف العيش ثم لا نثور للتسعة آلاف من الجنيهات التى تدفع لفرقة الأوبرا الأجنبية .

ولاح الجامع الأزهر لعيونهم ، فقال يوسف :

ــ لابد من أن نتخلص من الشيخ العباسى .

فقال أحدهم :

ــ إنه من شيوخ الجامع الصالحين .

ــ إننى لا أثق فى أن يفتى هذا الشيخ فتوى فى مصلحة النظام الدستورى .

ــ هذا ما يذيعه الشافعيون والمالكيون لأن الشيخ حنفى .

فقال يوسف فى تأكيد :

ــ إننى لا أثق فى أن يفتى فى مصلحة الدستور ، فإذا لم يفت وجرى فى ذلك على رغبة الخديو الذى عينه ، استطاع الخديو أن يجد عذرا للحنث بوعده .

ــ اليوم تظهر نتيجة انتخاب شيخ الأزهر ، وسنرى لمن تكون الغلبة .

وارتفعت الأصوات واختلطت :

ــ للشيخ عليش .. للشيخ الأمبابى .

وقال صوت خافت :

ــ للشيخ العباسى .

وارتفعت ضحكات الزراية والاستخفاف ، وقال أحدهم :

ــ يكفينا فخرا أننا عدنا إلى طريق تعيين شيخ الجامع بالانتخاب ، بعد أن كان يعين من المقربين إلى الخديو الذين يضعون الفتاوى والدين فى خدمة مآرب أصحاب النفوذ ، ولو كانوا من المردة والشياطين .

ودارت الانتخابات ، ونال الشيخ عليش أغلبية ساحقة ، ولكنه لم يعين شيخا للأزهر بل عين الشيخ الامبابى ، فقد كان توفيق يخشى الشيخ عليش ويهابه .

٣٣

كان الناس مغتبطين بما وصلوا إليه ، ألف شريف باشا الوزارة واستصدر أمرا بعقد مجلس شورى النواب ، ووعد بأن يقدم لهذا المجلس مشروع « لائحة أساسية » لإنشاء مجلس نواب ذى سلطة ، وشعر الجميع بأنهم مقبلون على عهد كله حرية وثقة واطمئنان .

والتف الشعب حول عرابى ، حتى الذين كانوا يناوئون حركته اعترفوا به زعيما لهم ، وهرع الصحفيون الأجانب إليه يصغون إلى ما يحدثهم به . فكان يقول لهم فى تواضع جم :

ـــ أنا ممثل الجيش لأن الظروف أرادت أن يثق الجيش بى ، ولكن الجيش نفسه هو الذى مثل الأمة وهو حاميها ومرشدها حتى تستغنى عن إرشاده ، إن الجيش هو القوة الواقفة الآن بين مصر وحكامها الأتراك الذين لا يحجمون عن تجديد مظالم إسماعيل فى أى وقت إذا لاحت لهم فرصة ، ولو أن المراقبة الأوربية تحول بصفة جزئية بين أولئك الحكام وما يريدون ولكنها لا تؤهل البلاد لحكم نفسها حين ينقضى أجل المراقبة ، وهذا هو الذى يجب علينا أن ننظر فيه ونعنى به .

لقد كسبنا للناس حق التكلم فى مجلس الأعيان ، ونحن نؤيدهم حتى لا يخدعوا أو يزعجوا من ثم بالقوة ، ولسنا نعمل فى هذا لأنفسنا بل لأبنائنا ولأولئك الذين وثقوا بنا ، إننا نحن الجنود نقف اليوم فى مثل موقف ذلك

الأعرابى الذى رد على عمر فى أواخر أيام حكمه ، إذ كان يسأل هل الناس راضون ، فرد ذلك الأعرابى ، لو رأينا يا بن الخطاب فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا .

إننا نحن المصريين لا نحب الدماء ، ولا نود أن يسفك شىء منها ، ومتى عرف برلماننا كيف يتكلم تنتهى مهمتنا نحن الجنود ، ولكننا مصممون على حراسة حقوق الشعب حتى يتحقق هذا ، ولا نبالى بعون الله بقيمة الثمن الذى تقتضيه هذه الحراسة ، أو الذى يجب أن ندفعه فى مقابل حراسة الشعب للذين يحاولون إسكات صوته .

وساد الاتفاق بين جميع الأحزاب المصرية ، وهدأ الجيش ، واعتدلت لهجة الصحف تحت رقابة الشيخ محمد عبده المحبوبة لدى الجميع ، وأخذ الوزراء يضعون مشروع القانون الأساسى الذى يمنح البلاد حريتها ، ثم اجتمع مجلس النواب للمداولة فى نصوص الدستور ، وتلهف الناس يريدون أن ينتهى النواب من إقراره ، فقال الشيخ محمد عبده :

— لقد لبثنا قرونا فى انتظار حريتنا ، فلا يشق علينا أن ننتظر بضعة أشهر .

وران على مصر هدوء عجيب ، ولكنه الهدوء الذى يسبق العواصف والأعاصير .

كان إسماعيل فى أوربا يكيد للحكومة المصرية ، كان يحلم بالعودة إلى عرش مصر فكان يدس الدسائس لعله يحقق ذلك الوهم الخداع ، وكان نوبار باشا والسير رفرز ولسن يعيشان فى باريس يحسان مرارة ما أصابهما فى مصر من إخفاق ، فكانا يعملان فى الليل والنهار على أن يطعنا الحكومة المصرية طعنة نجلاء ، فلما وجدا أن غمبتا صار رئيسا للوزراء فى فرنسا ، وجدا الفرصة



والتف الشعب حول عرابى ..

سانحة ليشفيا غليلهما ، فهرعا إليه ينفثان سمومهما ويوغران صدره على الحركة المصرية والقائمين بها .

كان غمبتا يهوديا ، فكان متصلا بالمصالح المالية فى بورصة باريس ، وكان ذا صلة متينة ببيت روتشلد وغيره من أصحاب الأموال الذين اشتروا بملايينهم سندات الدين المصرى ، فسهل على السير رفرز ولسن أن يتصل به ويحادثه فى أمر الدين المصرى ، فقد كان ممثلا للبيت اليهودى الكبير .

وما مضت أيام على تولية غمبتا الوزارة واتصال نوبار وولسن به حتى كان يفاوض وزارة الخارجية البريطانية ابتغاء حمل إنجلترا على الاشتراك مع فرنسا فى القيام بعمل عنيف ضد الحركة الوطنية فى مصر ، وأن يكون ذلك بمثابة حملة صليبية تقوم بها الدولتان تحت ستار الدفاع عن المدنية ، وتنظيم مالية مصر .

وراحت الرسائل تتبادل بين وزير خارجية إنجلترا وغمبتا ، كان وزير الخارجية يتظاهر بأنه يخشى من التدخل لأن ذلك قد يعجل الثورة ، وغمبتا يقول إن من الخطر أن تسكت الدولتان حتى تفاجئهما الحوادث وأن المصلحة صارت قاضية بشل عناصر الاضطراب المتولدة من عقد مجلس شورى النواب . ولما كانت المفاوضات التجارية جارية بين الدولتين وكان وزير خارجية إنجلترا يخشى أن تخفق هذه المفاوضات ، فقد وافق على أن تشترك الدولتان فى عمل عنيف ضد الحركة الوطنية ، فبيعت حرية مصر ، وفكرة الإصلاح فى العالم الإسلامى كله ، وضحت بها حكومة الأحرار الإنجليزية بثمن بخس ، ألا وهو تخفيض الضرائب التى تجبيها فرنسا على الصادرات الإنجليزية !

وأرسلت حكومة فرنسا وحكومة إنجلترا مذكرتهما المشتركة إلى القنصل العام ، ليرفعها إلى الخديو .

« حضرة القنصل العام :

كلفناكم غير مرة أن تخبروا الجناب الخديوى وحكومته عن رغبة حكومتى فرنسا وإنجلترا فى مساعدته ومساعدة حكومته للتغلب على المصاعب المتنوعة التى تزيد الارتباك والقلق فى القطر المصرى ، فإن الدولتين على وفاق وطيد واتحاد تام فيما يتعلق بمصر ، ولا سيما بعد حدوث الحوادث الأخيرة وأخصها صدور الأمر الخديوى بجمع مجلس شورى النواب ، مما أوجب المخابرة بين الدولتين وإعادة النظر فى شئون اتفاقهما المذكور .

وبناء على ذلك نرجوكم أن تصرحوا الآن للجناب الخديوى بأن حكومتى فرنسا وإنجلترا تريان وجوب تأييده فى الخديوية ، وفقا للأحكام المقررة فى السلطانية التى قبلتها الدولتان قبولا رسميا على اعتبار أنها وحدها تكفل الآن استمرار السلم والسكون ، وتوجب توسيع نطاق الثروة والعمران فى البلاد المصرية مما فيه مصلحة الحكومتين المذكورتين ، المتفقتين على الاشتراك فى السعى إلى دفع كل ما من شأنه أن يحدث فى مصر ارتباكا ، أو يخل بنظامها وأحوالها ، سواء أكان هذا الخلل وهذا الارتباك ناشئين من أسباب خارجية أم من أسباب داخلية .

ولا ريب عندنا فى أن هذا التصريح العلنى المبين لمقاصد الحكومتين بمنع حدوث ما عساه أن يطرأ على حكومة الخديو من الأخطار ، وإن حدث فالحكومتان لا تترددان فى دفعه ، ولا تحجمان عن صده .

وفى أمل الدولتين يستمد الخديو من هذا التصريح الثقة والقوة ، اللتين هو محتاج إليهما لإدارة أمور الشعب المصرى والبلاد المصرية » .

ووصلت المذكرة إلى الخديو ، فإذا بذلك الهدوء الذى يسيطر على البلاد يتهتك ، وإذا بالنفوس المطمئنة تقلق ، وإذا بالثورة تتأجج فى الصدور ، فإنجلترا وفرنسا تتحرشان بمجلس شورى النواب وما كان هناك سبب لهذا التحرش المقيت ، وتتحديان الشعب المصرى بتحريضهما توفيقا على مقاومة الحركة الوطنية .

وغضب شريف باشا ، وأعد ردا على هذه المذكرة الظالمة يرفض فيه توفيق حماية إنجلترا وفرنسا ، جاء فيه :

« إن اليوم الذى يؤيدنى فيه الدولتان ضد إرادة بلادى هو اليوم الذى تحين فيه الساعة الأخيرة ، ومتى فصل الرأس عن الجسد لم يبق سبيل إلا إلى الموت ، فأنا إما أن أكون خديوى المصريين أو لا أكون شيئا » .

وعلمت حكومة فرنسا بنبأ هذا الرد فسعت عند توفيق وشريف كى يعدلا عنه ويلتزما الصمت ، فأطاعا وسكتا !.

وأرادت إنجلترا أن تعرف أثر هذه المذكرة فى نفس عرابى فبعثت إليه أحد أصدقائه الإنجليز ، فانطلق الصديق إلى ثكنة قصر النيل وقابل عرابى فى مكتبه ، وقد أصبح وكيلا لوزارة الجهادية ، فألفى وجهه عابسا ويتألق فى عينيه بريق الغضب ، فقال له الصديق :

— أخبرنى كيف فهمت المذكرة التى أرسلتها إنجلترا وفرنسا .

فقال له عرابى فى غضب :

ـــ أخبرنى كيف تفهمها أنت ؟

ـــ إن معنى المذكرة ـــ كما تفهمه الحكومة البريطانية ـــ هو أن إنجلترا وفرنسا لن تسمحا بأن يتدخل السلطان فى مصر ، ولن تسمحا للخديو أن يحنث بوعده ويؤذى البرلمان .

فقال له عرابى فى استخفاف :

ـــ من فسرها هذا التفسير ؟.

ـــ السير إدوارد ماليت .

ـــ لا شك أن السير إدوارد ماليت يحسبنا أطفالا لا نفهم معنى الكلمات ، هذه لغة تحد وتهديد ، وليس فى هذه الإدارة كاتب يستخدم مثل هذه الألفاظ لغير هذا المعنى .

وصمت عرابى قليلا ثم قال :

ـــ هذا تحد لحريتنا ، وليس لإعلان اتحاد فرنسا وإنجلترا معنى إلا أن إنجلترا ستغزو مصر كما غزت فرنسا تونس ، دعهم يأتون ، فكل رجل فى مصر وكل طفل سيقاتلهم ، ليس من مبادئنا أن نبدأ بالعدوان ، ولكننا سنعرف كيف نرد الاعتداء .

إن السلطان هو الذى يحافظ على عرش توفيق فليس هو فى حاجة إلى ضمان أجنبى ، ولك أن تخبرنى بما تشاء ولكنى أعرف معنى الكلمات أحسن مما يعرف ماليت .

وراحت الحوادث تترادف ، قدم شريف باشا إلى مجلس شورى النواب

اللائحة التى ستكون دستور البلاد ، وقد جاء فيها أن لمجلس النواب أن ينظر فى الميزانية ويبحث فيها : وتعتمد بعد إقراره عليها ، وعلى رئيس المجلس أن يبلغ ذلك إلى ناظر المالية ، واجتمعت لجنة من أعضاء البرلمان لدراسة المشروع ، وراح المراقبون الماليون يلحون على الوزارة فى أن لا تمس سلطتهم فى وضع الميزانية ، وألا يتعرض المجلس الجديد لها ببحث أو اقتراح ، فوافق شريف باشا على ذلك ، وراح يعدل اللائحة بحيث لا يكون للمجلس أى حق فى المسائل المالية !.

واجتمع النواب وقالوا :

— إن المراقبة المالية الأجنبية ليس لها شأن إلا الإشراف على كل ما يختص بمسألة الديون ، ولما كانت فائدة الدين تبلغ نصف الإيراد ، فقد وجب أن تكون الأمة حرة فى التصرف بالنصف الثانى .

وساء ذلك المراقبين الأجنبيين ، فكتبا احتجاجا قدماه إلى الوزارة :

«يظهر أن مجلس شورى النواب يتهيأ لأن يطلب حق تقرير الميزانية ولهذا نرى من واجبنا أن نقول إن إعطاء النواب هذا الحق ، ولو اقتصر على الإدارات والمصالح التى لم تختص إيراداتها للدين يفسد الضمانات المعطاة للدائنين ، لأنه سيكون من نتائجه الضرورية أن تنتقل إدارة البلاد من يد مجلس النظار إلى يد مجلس النواب .

وكشف الغطاء عن نية إنجلترا وفرنسا ، كانتا تتمسكان بأن تبقى السلطة فى مجلس النظار حتى تبقى خاضعة لسيطرتهما ، فما أيسر الضغط على مجلس النظار ، وما أصعب تأليف قلوب النواب .

وثار النواب وراحوا يردون على ذلك الاحتجاج ، قالوا :

— اننا لا نقبل أن تكون بلادنا متاعا مرهونا فى يد الدائنين ، وأن يكون علينا لإزالة كل شاغل يساور هؤلاء الدائنين أن نقبل الحرمان من الحقوق الأولية التى تملكها كل أمة متمدينة . إن هناك حكومات ترزح تحت ديونها أكثر مما ترزح الحكومة المصرية ، بل هناك حكومات مزقت تعهداتها ورفضت أن تدفع ما عليها ، ولكنها كلها مع ذلك لم تحرم حقها فى أن تحكم نفسها بنفسها ، أما نحن ، ودائنونا لا يجدون محلا للشكوى منا ، فإننا نمنع من أن ندخل على قوانيننا بالاتفاق مع خديوينا إصلاحات يعترف الكل بفائدتها للحكومات والشعوب .

وقر رأى النواب على أن يختاروا منهم خمسة عشر عضوا من أعضائه يسيرون إلى شريف باشا ثم إلى الخديو ، للتصديق على المشروع الذى وضعوه قبل انقضاء النهار .

انطلق النواب إلى وزارة الداخلية ، وقابلوا شريف باشا ، وقدموا له التعديل الذى أقروه فيما يختص بنظر الميزانية وقالوا له :

— إن تأخير تنفيذ اللائحة جالب للإخفاق ، ولهذا عقدنا النية على ألا نترك هذا اليوم يمضى بغير قبولها أو رفضها .

فقال لهم شريف باشا وهو يلاطفهم :

— تعلمون أنى منذ أخذتم فى تنظيم لائحتكم هذه لم أتعرض لشىء من امتيازاتكم ، سوى ما تطلبونه من تعديل فيما يختص بنظر الميزانية ، فلذلك لم أوافق على ما رأيتموه من أمر الميزانية إلا بعد رضا الدول ذوات الشأن .

ـــ إن هذا من خصائصك ولا دخل للدول فيه ، فإن مسألتنا لا تمس ما لهم من الحقوق ولا تضر لهم مصلحة .

ـــ لا سبيل إلى ذلك ألبتة .

ـــ إنا نأسف جدا أن يوافق لنا على اللائحة غيرك .

وفهمها شريف ، فطن إلى أنهم سيطلبون من الخديو عزله ، فأطرق و لم ينبس بكلمة ، وخرجوا من عنده وانطلقوا إلى قصر عابدين ، وقابلوا الخديو وقالوا له :

ـــ إنا جازمون بمحبة مولانا للوطن وميله إلى إصلاحه ولهذه الغاية منح الأمة المصرية حقوق الشورى وفتح مجلسها ، فنظمنا له هذه اللائحة ونقحناها وطلبنا إلى الوزير محمد شريف باشا أن يوقعها ، فلم يقبل حالة كوننا لم نتعرض لشيء مما فى العقود الدولية .

فقال توفيق :

ـــ إذا كانت الوزارة قد أبت التصديق على اللائحة فماذا تطلبون ؟

ـــ نطلب أن تعزل فتشكل وزارة أخرى لا تأبى التصديق والعمل معنا .

فقال توفيق وفى صوته رنة إنكار :

ـــ وبأى حق تطلبون هذا ؟

ـــ تلك هى إرادة الأمة .

ـــ ننظر فى ذلك غدا .

وانصرف النواب ، وأرسل الخديو فاستدعى شريف باشا والسير ماليت وقنصل فرنسا ، وراحوا يقلبون الأمر ، واستقر رأيهم أخيرا على أن يستقيل شريف باشا وأن يترك الخديو للنواب اختيار الوزارة الجديدة . و لم يستطع

الخديو أن يتريث حتى الغد ، بل أرسل إلى الخمسة عشر نائبا يطلب إليهم الحضور ، فلما جاءوا قال لهم :

ـــ لقد استقال شريف باشا فمن تريدون أن يخلفه ؟.

فقالوا له :

ـــ اختيار الوزراء من حق الخديو .

ـــ تركت لكم هذا الحق ، فمن تختارون ؟.

ـــ ليس لنا أن نختار .

وأصر ، وأخيرا قالوا :

ـــ أمهلنا إلى الغد .

وفى صبيحة اليوم التالى جاءوا إليه وقالوا :

ـــ إننا نشير بمحمود سامى البارودى رئيسا للوزارة ، وعين عرابى وزيرا للحربية ، وبدأت الافتراءات تنتشر فى الخارج ، فأرسلت شركة روتر برقية تقول فيها : إن استقالة شريف باشا حدثت تحت التهديد العسكرى . وقصت التيمس قصة طويلة قالت فيها إن سلطان باشا رئيس مجلس النواب قد أذعن لرأى النواب تحت تأثير التهديد الشخصى ، وأن عرابى قد استل سيفه أمامه ، وهدده بتيتيم أطفاله .

وصدق الأجانب هذه المفتريات على الرغم من أن سلطان لم يكن له أبناء !.

كان رد النواب قويا على مذكرة الدولتين ، فقد أعلنت إنجلترا وفرنسا فيها أنهما تحتفظان بالنظام الحالى ضد الجميع ، فأجاب المجلس على ذلك أن غير هذا النظام تغييرا جوهريا ، وبذلك وضعت إنجلترا وفرنسا نفسيهما فى مأزق ، فصارت الضرورة تقضى عليهما بأن تتدخلا أو تعدلا سياستهما.

٣٤

راحت الشمس تطأطىء رأسها بعد أن شمخت فى كبرياء ، وتلصق خدها بالأرض تواضعا بعد أن سعرته وارتفعت إلى كبد السماء ، لكأنما كانت تصيح بالمتكبرين أن بعد العلا الهبوط ، وتهيب بالغافلين أن بعد السطوع الأفول .

وهب النسيم رخاء يعابث أوراق الشجر ويداعب أعواد الخضر النابتة فى الحقول ، وانساب يوسف فى الطريق الذى مهدته الأقدام ، وهو غافل عما حوله من جمال ، كان شارد اللب مشغولا بما فى نفسه من رؤى وخيالات .

وبلغ الجسر ، فراح يجتازه وهو يتلفت ، كان يرجو أن يقابل سعدية فى أوبتها فيحدثها ويبثها ما فى نفسه من آلام وآمال ، فما كان يطيق أن يذهب دون أن يفتح لها قلبه ويعلنها بما يكنه لها فؤاده من حب وهيام .

انه ودع أهله ، ولكنه ما جاء إلى القرية إلا ليراها ويناجيها قبل أن ينطلق إلى حياته الجديدة التى لا يدرى ماذا تخبىء له فيها الأيام .

وانساب فى طريقه ، حتى إذا ما لاحت له شجرة الجميز والساقية وحقل الشيخ المتواضع ، خفق قلبه وسرى فى جوفه قلق وأخذ يدير عينيه فى المكان ، فلما لمحها اشتد وجيب فؤاده ، وتفجرت فى جوفه إحساسات رقيقة ، وهفت روحه إليها ، فانطلق صوبها كالمأخوذ وقد أرهفت

حواسه ، وتركزت فيها كل آماله .

رأته وهو قادم إليها وقد رفت على شفتيه بسمة ، وتلاقت عيناه بعينيها فاضطربت وتضرجت وجنتاها بحمرة خفيفة زادتها جمالا ، وتلفتت قلقة ، ثم راحت تجمع شتات نفسها وتتأهب للقائه ، فما وقعت عليه عيناها بعد أن ردته يوم جاء يخطبها .

ومس صوته العذب أذنيها وهو يقول لها :

— مساء الخير يا سعدية .

فارتجفت ، وقالت فى صوت ينم عن القلق :

— مساء النور .

وساد الصمت بينهما وإن كانت المشاعر تمور فى الصدور ، وإن كانت العيون تتحدث والقلوب تخفق بين الجوانح وأسبلت سعدية جفنيها وقالت فى ارتباك :

— أتريد أن ترى جدى إنه هناك .

فقال يوسف فى صوت ينم عما يكابد من وجد :

— ما جئت إلا لأراك أنت .

وأطرق قليلا ثم قال :

— إننا يا سعدية قد لا نتقابل بعد اليوم . جئت أقول لك إننى أحببتك من أول يوم وقعت فيه عيناى عليك ، أحسست أن روحى تهفو إلى روحك ، وأن قلبى يرقص طربا كلما دنوت منك ، وأنك لى كل شىء ، فتقدمت أخطبك ولكن ..

وبدا فى وجهه الأسى حتى أن سعدية أشفقت عليه . واستأنف حديثه قال :

ـــ يا طالما أمضيت الليالى أفكر فيك ! .

وراحت سعدية ترنو إليه فى حيرة ، احتقن الدم فى وجهها وعقد لسانها فلم تنبس بكلمة ، واستمر يبثها لواعج نفسه وهى تضطرب ، تنظر إليه ثم تغض الطرف وتعبث بثوبها ، ثم تعود وتتفرس فى وجهه بعيون قلقة ، وراح يقول :

ـــ إننى ذاهب وقد لا أعود .

فقالت فى صوت متكسر مضطرب :

ـــ ذاهب إلى أين ؟.

ـــ طلبت للجهادية ، وعما قريب تقع الحرب .

فقالت فى فزع :

ـــ الحرب ؟!.

وانقبضت ودق قلبها رهبة ، واحتلت أقطار رأسها صورة حامد فاشتد جزعها ، وتلفتت فى قلق واضطراب فلمحت جدها يدنو منها فارتبكت ، وسمعت الشيخ يقول :

ـــ أهلا يا بنى ، وما الذى جاء بك الساعة ؟.

فقالت سعدية فى صوت مرتعش :

ـــ جاء يودعك قبل أن يذهب إلى الجهادية .

فقال الشيخ إبراهيم فى عجب :

ـــ متى طلبوك ؟.

ـــ علمت منذ أسبوع ، فالحكومة ترى أن تستعد ما دام الجو متوترا .

وانطلقوا ، الشيخ ويوسف يتجاذبان أطراف الحديث ، وسعدية غارقة فى الصمت تفكر فى حامد ، وقد نبت القلق فى جوفها .

قال الشيخ :

ـــ أتظن أن الحرب واقعة ؟.

فقال يوسف وهو يهز رأسه :

ـــ أظن أن الخطر حقيقى ، فالصحف الإنجليزية تشن حملة مغرضة ضد المصريين لتمهد للتدخل المسلح .

ـــ وما موقف الخديو ؟.

ـــ يغار من عرابى بعد أن علا ذكره ، فمال إلى الإنجليز ، إنه لا يبت فى أمر إلا بعد أن يستشير إنجلترا .

ـــ وما موقف الشيخ محمد عبده من الحركة ؟ .

ـــ أصبح الشيخ محمد عبده من أتباع عرابى ، فهو يخطب فى كل حفل ليؤجج نار الثورة فى الصدور .

فقال الشيخ إبراهيم وقد تألقت عيناه ببريق عجيب :

ـــ إننى أمقت الحرب ، ولكن إذا جاء الإنجليز وجب علينا قتالهم ، إنهم يريدون أن يفعلوا فينا ما يفعله الفرنسيون فى تونس .

فقال يوسف وهو يلوى شفته فى مرارة :

ـــ إنها صفقة عقدتها إنجلترا وفرنسا ، أن تطلق إنجلترا يد فرنسا فى تونس ، على أن تدع فرنسا إنجلترا تفعل ما تشاء فى مصر .

وكانوا قد بلغوا الدار فقال الشيخ ليوسف :

— تفضل ..

فقال يوسف وهو يمد ليصافح الشيخ إبراهيم :

— متشكر ، فقد حان أوان ذهابى .

وتصافحا طويلا ، ثم قال الشيخ :

— مع السلامة .

ومد يوسف يده وصافح سعدية وقلبه يخفق بين ضلوعه كجناح حمامة ، وغمغم :

— إن شاء الله نراكم قريبا بخير .

ودار على عقبيه وانصرف والشيخ يتبعه بنظره ، وسعدية تنظر من بين دموعها ولا ترى شيئا ، وإن كانت ترى بعين خيالها صورة حامد واضحة مجلوة ، فتحس غصة فى حلقها ووقدة نار ترعى فى أحشائها ، وكانت تخشى أن يندلع لهيب الحرب دون أن تراه وتقول له إنها ستدعو الله فى الليل وفى النهار أن يعيده إليها سالما .

٣٥

طفق الخديو إسماعيل يدبر مؤامرته من نابولى ، فكان كلما أخفقت مؤامرة راح يدبر مؤامرة أخرى ، فقد كان كل همه أن يجد ثغرة يدخل منها إلى مصر ويعود إلى عرشه .

وكان السير رفرز ويلسن يدبر مؤمراته من باريس ، لم ينس أنه خرج من مصر مطرودا فحنق عليها وراح يؤلب الدول ويغريها بالتدخل المسلح ، ولو أن سبب عداوته لمصر كان بغضه لإسماعيل باشا إلا أنه راح يعاون إسماعيل فى مكائده ضد الوطنيين ، كان كل ما يبغيه أن يبذر فى أرض مصر القلاقل والفتن .

وكان السير ماليت يدبر مؤمراته من القنصلية البريطانية يؤيد الخديو ضد عرابى والوطنيين ويوسع شقة الخلاف بينهم ، وينفخ فى نار العداوة والبغضاء ، حتى تتاح له الفرصة التى ترقبها بلاده ، فرصة غزو البلاد الآمنة .

وكان شريف باشا يجتمع بمنزله بالحانقين على الوطنيين ، فكان يهدف إلى قلب الوزارة التى جاءت على أنقاض وزارته .

وكان توفيق مترددا بين سبيلين ، أن يسير مع الوزارة الدستورية وعرابى . أو ينضم إلى الرجعيين الأتراك ولو أدى ذلك إلى عودة والده .

وأرسل إسماعيل باشا إلى وكيله راتب باشا ، وكان من ألد أعداء الوطنيين المصريين ، وأخبره أنه حصل على إذن بدخول مصر بوسائط سرية ، وأمره بالسفر والعمل على إشاعة الفوضى بين صفوف

المصريين ، لعل الفرصة التى يرقبها تواتيه ، والحلم الذى يداعب خياله فى الليل والنهار يتحقق .

وانطلق راتب باشا إلى مصر ونزل على أخيه البكباشى محمود طلعت ، وراح يزين له الثورة على الضباط الفلاحين ، حتى إذا ما انضم أخوه إليه أخذ يتصل بالضباط الجراكسة .

وفى ذات يوم اجتمع راتب وطلعت ونجاتى ومحمود بك فؤاد ابن أخت خسرو باشا وعثمان باشا رفقى ، وجعلوا يديرون قداح الرأى فيما يفعلون ، حتى استقر رأيهم على قرار فراحوا يعملون على إنفاذه .

ودعوا ضابطا شركسيا لينضم إليهم فقال لهم :

— إننى على استعداد أن أنضم إليكم إذ ما أخبرتمونى على ما عزمتم عليه .

فقالوا له :

— عزمنا على قتل الوزراء الحاليين ، ثم قتل كبار الضباط فى الجيش .

— إننى لا أحب سفك الدماء .

وذهب الرجل إلى عرابى وأخبره بنبأ المؤامرة ، فعرض عرابى الأمر على هيئة النظار ثم على الخديو ، فتشكل مجلس حربى لتحقيق ما نسب إلى المتآمرين .

وصدر حكم المحكمة العسكرية بنفى المتآمرين إلى السودان ، فرأى السير ماليت فى ذلك الحكم سانحة لتعكير الصفاء ، فراح يكتب إلى لندن أن العقوبة قاسية لا تقل عن حكم الإعدام ، وجعل يحرض الجرائد الإنجليزية على أن تهاجم عرابى ، وعلى أن تدعى أنه ذهب إلى السجن وأن المتهمين عذبوا أمامه !.

وذهب ماليت إلى الخديو وقال له :

ـــ إن هذا حكم جائر ، فإذا كان المتهمون قد اعترفوا فقد كان ذلك بالإرهاب والتعذيب ، لقد كنت أسمع صراخا فى جوف الليل .

ـــ وبماذا تشير على ؟.

ـــ أن تخفف الحكم عنهم .

وتجاهل السير ماليت الإنجليزى العريق فى الدستور أن تخفيف الحكم لم يعد حقا للخديو طبقا للدستور المصرى الوليد .

ودخل عرابى على الخديو يحمل قرار المجلس الحربى الذى حكم على راتب باشا بتجريده من الرتب العسكرية والامتيازات والنياشين وعدم العودة إلى مصر ، وعلى عثمان رفقى باشا بالنفى المؤبد وعلى الضباط بالنفى المؤبد إلى أقاصى السودان على شرط أن يكونوا متفرقين فى البلاد فى الجهات التى ينفون إليها . وتناول القرار وأطرق قليلا يفكر ، وإذا بصوت عرابى ينساب فى أذنيه ، فيرفع الخديو رأسه يرنو إليه فى ذهول ، فما كان يصدق ما يسمع .

قال عرابى :

ـــ أرى تأليف القلوب خيرا من التفريق بين أعضاء الأمة ، والانتفاع بأولئك الضباط إذا ثابوا لعقولهم خيرا من فقدهم فى فيافى السودان المحرقة ، فألتمس من مولانا أن يبدل هذه الأحكام بأن يأمر بإرسالهم إلى الآستانة ، ثم يصدر عفوه عنهم بعد ذلك فيعودوا إلى أولادهم ووطنهم الذى اتخذوه وطنا لهم .

وأحبطت مؤامرة الضباط الجراكسة فساء إنجلترا أن يسود السلام ، فالحزب الوطنى قد نجح فى إقرار الدستور ، فإذا ما ترك وشأنه فسيصبح من العسير على الأجانب التدخل فى شئون البلاد ، فقد عزمت إنجلترا أن ترسل

أسطولها تحرشا بالوطنيين ، لتنفيذ ما بيتت العزم عليه .

وراح الناس يتهامسون أن السفن البريطانية فى طريقها إلى مصر ، وساد البلاد توتر وذعر ، وارتفع الهمس لما دخلت إلى مياه الإسكندرية أول دارعة إنجليزية ، وانقلب إلى زئير وحنق وغضب .

لاح الخطر للعيون ، فدعا رئيس النظار محمود سامى البارودى الضباط لاجتماع فى ثكنات عابدين ، حتى إذا ما وافى الميعاد انطلقوا إلى غرفة على باشا فهمى ينتظرون ، وأقبل محمود سامى والشيخ محمد عبده فساد السكون برهة ، ثم قال محمود سامى باشا :

ـــ هاتوا نضدا ومصحفا .

فجاءوا بالنضد وبالمصحف ووضعوهما فى وسط الغرفة ، وقال محمود سامى :

ـــ دخلت اليوم السفن الإنجليزية الإسكندرية وما جاءت إلا لحربنا ، فتعالوا نقسم على أن نكون يدا واحدة فى الحرب إذا وقعت الواقعة .

فوضع الضباط أيديهم على المصحف ، وراح الشيخ محمد عبده يلقنهم القسم وهم يرددونه خلفه فى حماسة وانفعال .

قال الشيخ محمد عبده :

ـــ والله العظيم ، والله العظيم ، والله العظيم ، قاهر السموات والأرض والمتسلط على القوى والقدر ، وحق ما فى كتاب الله تعالى ، أننى وأنا فلان لا أخون وطنى ، ولا أخون نفسى ، ولا أغش أحدا من أهل بلادى ، ولا أدع أحدا أيا كان أن يتعدى على أحد من أهل بلادى ما دمت قادرا على منعه ، وأنى أحافظ ، على القانون العسكرى بكل ما يمكننى وعلى قدر استطاعتى ، وأن

نكون يدا واحدة ، وعصبة واحدة ، وإذاحنثت بيمينى هذا أكون مستحقا لقطع الرقبة وشق الصدر ، وأن أكون محروما من مزايا الإنسانية والآداب .

وذاعت الشائعات وانتشرت الأقاويل ، وجاء فى جريدة التيمس أن إرسال الدوارع إلى مياه مصر لم يقصد به إلا تعزيز الخديوى وتأييد سلطته ، فأول ما ينبغي إجراؤه هو حمل عرابى باشا على التنحى عن الإدارة السياسية وقلب الوزارة ، فراح زعماء الحزب الوطنى يعقدون الاجتماعات لتقرير ما ينبغى عمله .

اجتمعوا فى دار سلطان باشا رئيس مجلس النواب ، وراحوا يديرون قداح الرأى فقال سلطان :

ــ لن تستقر أمور البلاد إلا إذا خلعنا توفيق .

فقال عرابى باشا :

ــ هذا ليس بالرأى .

فثار سلطان وقال :

ــ اقتلوا الثعبان سلالة الجناة الناهبين الذين باعونا للأجانب .

واستمروا فى نقاش لم يستقروا على رأى ، وجعلوا يوالون اجتماعاتهم يرقبون ما تتمخض عنه الحوادث .

وتقدمت الدولتان الإنجليزية والفرنسية بالإنذار الأخير للوزارة المصرية ، طلبتا فيه سقوط الوزارة وخروج عرابى باشا من القطر المصرى ، وإقامة عبد العال باشا حلمى وعلى باشا فهمى فى الأرياف لا يخرجان منها ، وتسريح صفوف العساكر فلا يبقى منها إلا القدر اللازم .

واجتمع النظار فى بيت رئيس النظار وقد ثارت ثائرتهم ، وراحوا يتحدثون

فى أمر اللائحة التى قدمتها إنجلترا وفرنسا قالوا :

ـــ ان هذا الإنذار يعتبر تدخلا فى شئوننا ، ومن الواجب رفضه .

والتفت أحدهم إلى سلطان باشا وقال له :

ـــ هل يمكن لنا أن نجمع مجلس النواب ؟.

فقال سلطان فى تخاذل :

ـــ أظن أن ذلك لا يكون إلا بأمر الخديو ، فنسأله فى ذلك ولا ريب أنه يوافق عليه .

فقال له أحد النظار فى زراية:

ـــ الخديو الذى كنت تطلب خلعه إن لم يكن قتله قبل أيام ؟!

وصمت سلطان ولم يتكلم ، وقال قائل :

ـــ اجتماع مجلس النواب حق للشعب ، ونحن نوابه ، ولابد لنا أن نطلب النواب إلى القاهرة ، حتى لو أراد عرابى أن يوافق على طلب إبعاده إرضاء للسياسة الأجنبية فليفعل ، أما نحن فلا نخضع لمثل هذه المطالب مهما أدى إليه الخلاف .

وتوجه رئيس النظار وناظر الخارجية إلى عابدين ، وقابلوا الخديو وقدموا له رار النظار برفض اللائحة ، فقال الخديو :

ـــ قدمت إلى نسخة من هذا الإنذار وقد قبلته .

فقال محمود سامى وهو ينظر إلى الخديو الذى ارتمى فى أحضان أعداء البلاد ، وفى عينيه زراية واحتقار :

ـــ هذا خلاف عظيم بين الوزارة وبينكم يستلزم استدعاء مجلس النواب للنظر فى مصلحة بلادهم ، وإنا نلتمس صدور أمركم بجمع مجلس النواب .

فقال الخديو :

ـــ لن أفعل .

قالها لأول مرة فى قوة فما كان من طبعه أن يرفض طلبا ، ولا غرو فقد كان فى حماية الأساطيل الإنجليزية !.

وقدمت الوزارة استقالتها احتجاجا على قبول اللائحة ، وهاج الشعب ، وانطلقت المظاهرات ، ووفد إلى القاهرة أعيان البلاد ، وذهبوا إلى عرابى وقدموا إليه طلباتهم ، وكانت تنحصر فى أمرين : رفض الإنذار ، أو عزل الخديو الذى قبل تدخل الأجانب فى أحوال البلاد الداخلية ونومه على الضيم .

وأصدر الشيخ عليش شيخ الجامع الأزهر فتوى قال فيها :

« بما أن الخديو قد حاول أن يبيع للأجانب ، وأطاع إشارات قناصل أوربا ، فإنه لم يعد يصلح لأن يكون وليا على المسلمين المصريين ، ويجب لذلك خلعه » .

وذهب عبد الله نديم إلى الإسكندرية ، وعقد اجتماعا حضره عشرة آلاف من المصريين الثائرين ، وراح يخطب فيهم يحضهم على رفض « اللائحة » التى تقدمت بها أوروبا ، ويدلل لهم على عدم كفاية الخديو الذى ارتمى فى أحضان أعداء البلاد ، وما انتهى من خطبته حتى أجج نار الثورة فى النفوس ، فلما ذهب الناس إلى بيوتهم أخذوا يعلمون أزواجهم وأبناءهم الاحتجاج على اللائحة . فلما نزل درويش باشا إلى الإسكندرية ، وكان موفدا من قبل السلطان للنظر فى أمر اللائحة ، راح الأولاد يصيحون :

ـــ اللايحة .. اللايحة ..

فتردد النساء صائحات :

— مرفوضة .. مرفوضة ..

— اللايحة .. اللايحة ..

— مرفوضة .. مرفوضة ..

وتفاقم الشر فهرع قناصل الدول ، ما عدا قنصل إنجلترا وفرنسا الضالعين مع الخديو فى مؤامراته ، إلى عرابى وقالوا له :

— تحرجت الأحوال ، وإننا نطلب منك التأمين على رعايانا .

فقال له عرابى :

— لقد استعفيت ، ولا صفة لى تخولنى تحمل المسئولية العظيمة.

فقالوا :

— إن الجيش لا يخالف إرادتك ، وأنت زعيم الحركة الوطنية ، فلا نأمن على رعايانا إلا إذا تعهدت لنا بالسهر على حفظهم .

— سأبعث برقية إلى جميع مراكز الجندية ، بصفتى رئيس الحزب الوطنى ، أطلب منهم فيها أن يلزموا الهدوء والسكينة ، وأن يحافظوا على راحة الجميع .

وكان سلطان باشا قد مال إلى الخديو واستمع إلى نصائح ماليت ، فلم يؤيد الوزراء فى طلبهم دعوة مجلس النواب ، وأراد أن يكفر عن خطئه فدعا إلى منزله أكابر القوم وعرابى وعبد العال وعلى فهمى ومحمد عبده ليصلح ما بين الوزارة والخديو ، فلما التأم الجمع دار النقاش واشتد واحتدم ، ثم قرر الجميع أن يطلب من الخديو أن يرفض الإنذار الثنائى وأن يأمر بإعادة عرابى إلى وزارة الجهادية أو يعزل عزلا .

وارتفعت أصوات الضباط والجماهير التى وفدت إلى حديقة المنزل

تهتف :

ــ اعزلوا الخديو ، اعزلوا من دعا الأجانب للتدخل فى أمرنا ، اعزلوا من استعان بأعدائنا ليهددونا بأساطيلهم .

وخرج عرابى ومن معه من الضباط وانطلقوا إلى منزل محمود سامى رئيس النظار ، وفيما هم فى طريقهم قابلهم عبد الله باشا فكرى أستاذ الخديو ومربيه فالتفت إلى عرابى وقال له :

ــ هل قتلتموه؟!

ــ من تعنى ؟

ــ أعنى الخديو .. ألم يقتل بعد ؟!

ــ إننا لا نقتل أحدا بغير حكم شرعى .

واستدعى الخديو النواب والأعيان والعلماء وقال لهم :

ــ إن السياسة اقتضت استعفاء الوزارة وقبول إنذار الدولتين فرنسا وإنجلترا ، وإنى حفظت لنفسى رياسة الجهادية وإدارة المصالح الإدارية لحين تشكيل وزارة جديدة .

فقال النواب له :

ــ إننا نلتمس عودة عرابى إلى الجهادية ليطمئن الجميع .

ودخل القناصل على الخديو ، ما عدا قنصلى فرنسا وإنجلترا ، وقالوا :

ــ إننا نطلب عودة عرابى إلى الجهادية ، فلن يستقر الأمن ما دام عرابى بعيدا عن الجهادية ..

وجاءت إلى الخديو برقية من ضباط آلايات الإسكندرية :

« إننا لا نرضى بغير عرابى باشا ناظرا للجهادية ، فإن مضى ١٢ ساعة و لم

يرجع إلى منصبه كنا غير مسئولين عما يحدث مما لا يستحب وقوعه » .

أرغم الخديو على إعادة عرابى ، فكتب له : « ولو أنكم استعفيتم ضمن هيئة النظار التى استعفت ، ولكن مراعاة لحفظ الأمن والراحة ، استصوبنا بقاءكم فى نظارة الجهادية والبحرية ، وأصدرنا أمرنا هذا لكم لتعلموه وتبادروا بإجراء ما فيه انتظام أحوال العسكرية الكافلة لحفظ الأمن العمومى على الوجه المرغوب ، كما هو مقتضى إرادتنا » .

وأصدر عرابى منشورا إلى قناصل الدول تكفل لهم بتأييد الأمن والراحة لجميع سكان القطر وطنيين وأجانب ، وراح يجمع الرديف تأهبا للحوادث ، واجتمع الخديو بالسير ماليت وسفير فرنسا،وتوالت اجتماعاتهم بالليل والنهار ، فقد عز عليهم أن يعود عرابى إلى مسرح السياسة رغم أنوفهم ، فراحوا يدبرون مؤامراتهم ليقضوا عليه ويتخلصوا منه .

٣٦

تمددت خديجة فى فراشها تحس وقدة نار فى حلقها ، وتجرى دموعها على خديها . كانت غارقة فى الأسى ، فغدا يودعها عمار ويذهب ويتركها للوحدة المريرة التى تتخايل لها كشبح مخيف .

كان أزواجها يفرون منها دون أن يودعوها بعد أن يبددوا كل ما تملك ، فكانت تحزن قليلا ، ثم تستأنف جهودها لتجمع ما يغرى رجلا على أن يتقدم إليها ليتزوجها إلى حين ، وكانت تهيىء نفسها منذ الليلة الأولى لزواجها لهذه اللحظة القاسية ، ولكن عمار لم يفكر فى الفرار ، فما بدد لها مالا ، وما حاول أن يستغل حبها له ، كان كل ما يبغيه أن يعيش معها دون أن يضطر إلى أن يعمل ، فلما كفلت له ذلك عاش معها ، قانعا بحياته راضيا بما هو فيه !

كانت سعيدة مغتبطة ، وقد أفعم قلبها بحب زوجها الذى عاشت قانعة فى ظله ، وقد اطمأنت إلى غدها ، ولكن القدر لم يغفل عنها فراح يفرق بينها وبين زوجها .. تحرجت الأمور بين مصر وبريطانيا فرأى عرابى أن يطلب الرديف ، فكان على عمار أن يترك خديجة وأن يذهب .

وأحست النار فى جوفها فشرقت بدموعها ، فدنا منها عمار وهمس :

ــ أما زلت تبكين ؟ لماذا كل هذا البكاء ؟

فقالت فى أسى :

ـــ أخاف أن يصيبك مكروه .

فقال لها يواسيها :

ـــ اطمئنى ، لن يصيبنى شىء ، لقد حاربت فى الحبشة ، واشتركت فى معارك طاحنة خرجت منها سليما .

فقالت فى مرارة :

ـــ نجوت لأنه لم يكن هناك من يحتاج إليك .

فقال لها وهو يحاول أن يسرى عنها :

ـــ اطمئنى ، عمر الشقى بقى .

فقالت خديجة فى ضيق :

ـــ ماذا كان يحدث فى الدنيا لو تركوك لى ؟!

فقال عمار فى حماسة :

ـــ هذه أول مرة أذهب فيها إلى الحرب وأنا مستريح الضمير .. حاربت فى الحبشة وما كنت أدرى لماذا أحارب ، كنت أخوض القتال مرغما وما كان همى إلا أن أنجو بنفسى ، أما الآن فإننى أحس أننى خارج للدفاع عن شرفنا ، أيرضيك يا خديجة أن نمكث هنا ونترك الإنجليز يستولون على بلادنا ؟!

فقالت خديجة فى ابتهال :

ـــ ليت هذه الحرب لا تقع .

فقال عمار مؤمنا :

ـــ يا ليت ، إننا لا نريد الحرب ولا نحب أن نشعل نارها ، ولكن إذا أكرهنا على خوضها فليس لنا مفر .

— ماذا لهم . ماذا يريدون منا و لماذا لا يتركوننا آمنين ؟

وأجهشت بالبكاء ، فدنا منها عمار وضمها إلى صدره وهمس :

— كفكفى دموعك ، ماذا ينفع البكاء ؟

وأحست راحة وهى بين ذراعيه فأخذ حزنها ينقشع ، واستسلمت لمشاعرها الحنونة التى تفجرت فى أعماقها فتشبثت به وضمته فى شدة إلى صدرها الولهان .

وأشرقت الشمس وتأهب عمار للانطلاق ، فتجددت شجونها وجعلت ترقبه ملهوفة فى قلبها شجن وفى حلقها غصة وفى عينيها دموع ، وحانت ساعة الرحيل فراح يصافح الشيخ إبراهيم وسعدية ، وتعلقت خديجة به وهى تبكى بصوت عال .

وسار لا يلتفت ، فغطت خديجة عينيها بيديها وانخرطت فى البكاء ، ولفت سعدية ذراعيها حولها فى رفق وقد غمرتها موجة من الأسى والحزن ، ووقف الشيخ إبراهيم ذاهلا وقد غامت عيناه بالدموع .

واختفى عمار عن العيون ، فدنا الشيخ من ابنته وقال لها فى صوت متهدج :

— كفى يا خديجة .. كفى بكاء .

فرفعت رأسها وقالت :

— ذهب .. ذهب ..

فقال الشيخ فى أسى :

— غدا يعود .

— هيهات .

ولمحت العبرات تترقرق فى مآقى الشيخ فقالت :

ـــ ليس لنا إلا الدموع .

فقال الشيخ إبراهيم فى مرارة :

ـــ إننى أبكى ، لأننى لا أستطيع أن أذهب معهم .

٣٧

ساء الخديوى أن يعود عرابى إلى وزارة الجهادية رغم أنفه ، فراح يفكر فيما يفعله ليتخلص منه ويستريح . ضمن عرابى أمام القناصل سلامة الأجانب ، فإذا أمكنه إثارة الفتن كان ذلك داعيا لتدخل الإنجليز والفرنسيين ، ولتنحية عرابى من طريقه وتثبيت عرشه .

رأى أن الجيش قد خذله ، فخطر له أن يشترى البدو وأن يعتمد عليهم فى إثارة القلاقل وإيقاظ الفتن ، فأرسل إلى مدير البحيرة وطلب منه أن يجمع مشايخ البدو ورؤساء القبائل وأن يحضرهم إليه .

وجاء الأعراب ومثلوا بين يديه فقابلهم مرحبا باشا ، وجعل يظهر لهم الود ، ثم طلب منهم أن يجمعوا ثلاثة آلاف رجل وأن يفدوا إلى العاصمة ، كان يمنى النفس أن يعكر وصولهم صفو السلام ، ولكن البدو أحجموا خشية بطش الجيش بهم .

و لم يقنط الخديو وراح يفكر فى دسيسة أخرى ، إنه وزير الداخلية ومحافظ الإسكندرية عمر لطفى يتلقى الأوامر منه .. فلماذا لا يستغل هذا



إننى أبكى ، لأننى لا أستطيع أن أذهب معهم

الجركسى الطامع فى الوزارة فى تنفيذ مآربه ، فإذا كان قد عجز عن إثارة القلاقل فى القاهرة فليجرب إثارتها فى الإسكندرية ..

وأرسل إلى عمر لطفى برقية رمزية :

« ضمن عرابى الأمن العام وأعلن عن ذلك فى الصحف ، وجعل نفسه مسئولا أمام القناصل ، فإذا نجح فى حفظ الأمن فلابد أن تضع فيه الدولة ثقتها ، وعندها يضيع ما لنا من اعتبار .. أضف إلى ذلك أن أساطيل الدول فى مياه الإسكندرية ، والخواطر متهيجة ، فعليك الآن أن تختار لنفسك : إما أن تخدم عرابى فى ضمانه للأمن ، وإما أن تخدمنا » .

واختار عمر لطفى لنفسه أن يخدم الخديو ، ففى خدمته خدمة لمصالحه وإن جزت على البلاد الذل والهوان .

وراحت جريدة المحروسة ، وهى لسان عمر لطفى المعبرة عن آرائه ، تنشر على الملأ أن الأوروبيين فى الإسكندرية يقومون باستعدادات حربية فتبلبلت الأفكار ، وساد الإسكندرية توتر وقلق ، وأخذ مندوبو عمر لطفى يوزعون النبابيت على الرعاع سرا ويوهمونهم أنهم ما يفعلون ذلك إلا لمحبتهم لهم ، فهم يسلحونهم حتى إذا ما اعتدى عليهم الأجانب كانوا على قدم الاستعداد !.

وعمل المستر كوكسن قنصل إنجلترا فى الإسكندرية على إثارة الخواطر ، فجمع قناصل الدول وقال لهم :

ـــ إن المصريين فى هياج شديد من وجود الأساطيل الحربية فى الثغر ، وأخشى من هجوم الرعاع على الأوروبيين وأخذهم على غرة ، وإن الحزم يقضى علينا بالمداولة فيما يجب اتخاذه من التدابير لحفظ أرواحنا وأموالنا .

وقرروا بإجماع الرأى أن يتسلحوا كأنما كانت مصر هى التى أرسلت إليهم

أساطيلها لتهدد سلامتهم ، وأخذ الأسطول البريطانى يسرب البنادق والمسدسات إلى الإنجليز والمالطيين .

وجاء يوم الأحد ، واجتمع أوشاب الأجانب وأوشاب الوطنيين فى الحانات ودور اللهو ، وانطلق أحد المالطيين لزيارة أخيه ، وكان فى خدمة المستر كوكسن ، فلما انتهت الزيارة منحه كوكسن جنيها ، فخرج المالطى وركب عربة راح يدور بها على الحانات فى الحى الأوروبى !

ووصل أخيرا إلى قهوة الجزار فى شارع الأخوات ، وأراد أن يصرف السائق فوضع فى يده قرشا واحدا ، فثار السائق وصاح به يناقشه ، وتطورت المناقشة إلى شجار ، فأطبق الحوذى على رقبة الرجل فما كان من المالطى إلا أن طعنه بسكين ، وجاء رجل ينصر المظلوم فهم يونانى وقتله ، واندلعت الشرارة التى تعاون الخديو والإنجليز على قدحها .

وخف الناس إلى المكان ، فإذا برصاصة تطلق من منزل مالطى ، وإذا بالمستر كوكسن يخرج من نفس المنزل ، فثار الناس واعتدوا عليه ، فقد حزروا أنه مشعل نار الفتنة والمحرض على إطلاق النار عليهم .

وخف إلى المعركة البرابرة والأعراب مدججين بالغضى التى وزعها أعوان المحافظ عليهم ، وجاء عمر لطفى ليزكى نار الثورة ، فدنا منه أعرابى وأشار له إلى أحد الأوربيين المطلين من النوافذ وفى أيديهم مسدساتهم وقال له :

ــ هل أطلق النار على هذا الرجل يا باشا ؟

فقال عمر لطفى :

ــ نعم اضربه .

وأطلق الأعرابى رصاصة فأردى الرجل قتيلا .

وراح أحد خدم المستر كوكسن يطوف على الأوروبيين ويحرضهم على التقدم والمثابرة على القتال ، وأراد عمر لطفى أن يزيد النار اندلاعا فأمر بعض أعوانه أن يعرضوا القتلى على الجماهير ليؤجج نار الثورة فى صدورهم فتنتشر الفتنة وتنداح حتى تغمر المدينة كلها .

وأراد عمر لطفى أن تتم حلقات تدبيره ، فانطلق إلى تليفون قريب واتصل بالقناصل وطلب منهم الذهاب إلى قسم اللبان . وخف القناصل إلى المكان ، فلما رآهم الناس ثاروا عليهم ، حسبوهم ما جاءوا إلا ليشدوا أزر المعتدين فهجموا عليهم حانقين يسددون إليهم الضربات .

وانسل عمر لطفى بعيدا بعد أن أشعل نار الفتنة ، ورآه رجل يعرفه بالقرب من زيزينيا فقال له فى دهش :

— كيف تكون هنا والمذابح على خطوات منك ؟

فقال عمر لطفى فى استخفاف :

— لست بقائد ، وهذا لا يعنينى .

— لِم لَم تحضر بلباسك الرسمى على حصانك شاهرا سيفك فى خمسين من عساكر المحافظة ، وبذلك كان الأمر ينتهى ؟

فقال له عمر لطفى فى غلظة :

— انصرف ليس هذا من شأنك ، وهل أنت محافظ البلد ؟

وأسرع عمر لطفى يتصل بالخديو ، فأرسل إليه برقية يخبره فيها أن الأمر أضحى خطيرا ، وأن النهب يجرى فى المدينة ، وأن زمام الأمر أفلت من يده .

فأبرق إليه الخديو : « اطلب المعونة العسكرية من الأميرال سيمور ، ولا تطلب جنودا مصرية » .

ولم يستطع أحد الأميرالايات بالإسكندرية أن يبرق لعرابى بما حدث فى المدينة ، فقد كان التلغراف مشغولا بالبرقيات المتبادلة بين عمر لطفى والخديوى .

وهرع عمر لطفى إلى الأميرال سيمور قائد الأسطول البريطانى يلتمس منه العون ، ولم يطلب معونة السلطات المصرية على الرغم من أن معسكر الجنود النظاميين كان على مقربة من الحادث . كان كل همه أن يقيم الحجة أمام القناصل أن عرابى عجز عن حفظ الأمن حتى يتمكن الخديو من عزله .

ورفض الأميرال سيمور التدخل ، فقد كان ينتظر حتى تندلع نار الثورة وتعم الفوضى فيجد فى ذلك مبررا قويا لضرب المدينة .. وأبرق عمر لطفى إلى الخديو :

ـــ الأميرال غير موافق خشية أن يحدث شيء آخر من الجنود فى المدينة ، مما يكون من الصعب تلافيه ..

وأرسل عمر لطفى إلى الأميرالاى سليمان سامى رسالة شفوية يطلب منه فيها أن يحضر هو وفرقته إلى المدينة بدون سلاح ، فخف الأميرالاى إلى حيث استدعى ، فلما رأى الثورة الهوجاء ثار فى وجه عمر لطفى وقال له :

ـــ أنت خائن لوطنك ودينك .

وحقد عمر لطفى عليه ، وأبى سليمان سامي أن يطيع أوامره ، وبلغ خبر تلك الفتنة إسماعيل باشا كامل قائد آلايات الإسكندرية فأسرع بإرسال الآلاى الخامس والسادس إلى ساحة المنشية ، وانطلق على رأس قواته .

وعند غروب الشمس نامت الفتنة .

٣٨

أثار الخديو وأنصاره الاضطرابات ، وكانوا يهدفون إلى طعن عرابى الطعنة النجلاء . كانوا يريدون أن يظهروه أمام الأجانب عاجزا عن حفظ الأمن ، ولكن ما أن ظهر الجيش فى الميدان وقبض على ناصية الأمر حتى نظر الأجانب إلى عرابى نظرتهم إلى منقذهم الذى خلصهم من المذبحة الهائلة والثورة الهوجاء ، فازداد رفعة وعلو شأن .

هدأت الحالة فى الإسكندرية فأرضى عرابى ذلك الهدوء ، ولم يستغل ارتفاع شأنه فى أن يضرب ضربته القاضية على خصومه ، فلو أنه كان يعرف أن عمر لطفى باشا هو محرك الفتنة وموقظها ، وأن بعض الضباط كانوا قد هموا بالقبض عليه واتهامه بتهمة التحريض ، وأن أكثر الذين قبض عليهم قالوا إنهم ما فعلوه إلا بأمر المحافظ وبرضاه ، إلا أنه لم يطلب محاكمته ليثبت للجميع أنه ليس فى البلاد يد أقوى من يده ، وأن العقاب سريع النزول بمن يعبث بالأمن ، بل قبل أن يكون عمر لطفى رئيس لجنة التحقيق فى أسباب المذبحة التى أوقد نارها !.

وعلى الرغم من الهدوء الشامل واستتباب الأمن راحت إنجلترا تتأهب للتدخل المسلح ، فأرسل وكيلا النمسا والمجر وألمانيا إلى حكومتيهما :

« إن نتيجة التدخل الحربى الأجنبى ، ما لم يكن مصحوبا بجيوش

تركية سيجعل حياة الأوربيين فى خطر ، وإننا نعتبر المسألة السياسية ثانوية بالنسبة لحياة رعايانا ، وإننا نؤيد الرأى القائل بوجوب ترك المسألة فى يد الباب العالى وحده ، ونعتقد أن أصلح الطرق لتجنب أهوال المصائب أن يخرج ماليت من البلاد ، وأن يبرحها الأسطول » .

ورأى ماليت أن حياته السياسية قد قضى عليها ، وأنه لن يستطيع أن ينتشلها من براثن الموت إلا إذا أشعل الحرب ، فراح ينفخ فى جمرة الحرب ليزكى نارها .

وعين راغب باشا رئيسا للوزراة ، وكان الناس يعرفون ميوله التركية فلم يرحب بتعيينه إلا الجراكسة ، وعين عرابى وزيرا للجهادية ، وأراد أن يبث الطمأنينة فى النفوس فالتفت إلى من حوله وقال :

ــ فلنركب عربة ولنسر فى شوارع المدينة لكى نبعث الثقة فى صدور الناس .

فركب هو وعلى فهمى باشا فى عربة ، وركب عبد الله نديم وآخر فى عربة ، وساروا تتقدمهم الجنود ، وراحوا يذرعون شوارع الفجالة والناس يبتهلون بالدعاء :

ــ الله ينصرك .. الله ينصرك ..

ولما وفد الليل انطلق عرابى وصحبه إلى منزل السيد حسن موسى العقاد ، وكان من ثراة التجار ، فألفوا الدار غاصة بالوطنيين الأحرار ، فقد كان السيد من مؤيدى الحزب الوطنى المطالب بحقوق البلاد .

ودلف عرابى ومحمود سامى البارودى والشيخ محمد عبده وعبد الله نديم إلى الغرفة الكبرى ، وراحوا يتحدثون وينشدون الأشعار ، فقال عبد الله نديم:

— تعالوا نهجو راغب باشا بأبيات .

فهجاه عرابى ببيت ، وهجاه الشيخ محمد عبده ببيت ، وهجاه نديم بأربعة أبيات ، وهجاه البارودى بقصيدة ، وراحوا يلعنون السلاطين والأمم التركية من عهد جنكيز خان وهولاكو إلى عبد الحميد .

وعادوا للاجتماع بعد العشاء فأخذوا فى الحديث فى السياسة ، وتكلموا عن أنواع الحكومات وأساليبها ، فقال قائل :

— إنى أفضل النظام الجمهورى .

فقال محمود سامى البارودى :

— كنا نرمى منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر جمهورية مثل سويسرا وعندئذ كانت تنضم إلينا سوريا ويليها الحجاز ، ولكننا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة ، ومع ذلك سنجتهد فى جعل مصر جمهورية قبل أن نموت .

وراحوا يتناقشون فى المسائل السلمية التى يمكن اتخاذها لكى تعبر مصر أزمتها الحاضرة ، فقال الشيخ محمد عبده :

— أجمعت رأيى على أن أجمع جميع الوثائق والمستندات التى لدى أو التى أستطيع حيازتها ، وأذهب بها إلى إنجلترا لكى أعرضها بنفسى على غلادستون والبرلمان الإنجليزى ، وسآخذ معى أحد وجهاء التجار ، وأحد الأحرار ممن ينوبون عن الفلاحين .

فقال محمود سامى البارودى :

— أوافق على هذا الرأى ، وإننى أريد أن أذهب إلى أوروبا لهذه الغاية .

ولكن الحوادث راحت تجرى أسرع مما يقدرون .



وهجا البارودى راغب باشا بقصيدة

ضايق الخديو أن يقبض عرابى على زمام الأمور ، وزاد فى حنقه ما بلغه أن إنجلترا قد تسحب ماليت وكان قد اتخذه مستشارا له يعمل بنصائحه ليتخلص من الوطنيين ، فسافر إلى الإسكندرية ليكون بالقرب من الإنجليز .

سافر عرابى فى معية الخديو الذى بات يغار منه ويخشاه ، فلما بلغا الإسكندرية انطلق عرابى ليقابل الأميرال سيمور ، فلما دخل عليه وحياه ألفاه متغطرسا منتفخ الأوداج يهدر فى حديثه كالموج ، وراح يصيح :

ـــ لن أصفح عنكم أبدا ، لقد قتلتم مستر اكت .

فقال له عرابى :

ـــ إننى لم أقتل أحدا .

ـــ إذا كنت لم تقتله فقد قتله إخونك .

ـــ كانت فتنة ، وقد عاد السلام ، ونرجو ألا يعكر أحد صفوه .

فقال سيمور فى غلظة :

ـــ البلاد فى فوضى ، ولولا تشجيعكم للغوغاء ما قتل مستر اكت .

فقال له عرابى فى حدة :

ـــ لولا تحرشكم بنا ما تعكر صفو السلام لحظة ، أوقدتم الفتنة وأخمدناها .

ـــ قتلتم اكت وسيكلفكم ذلك غاليا .

وخرج عرابى وهو يعجب من ذلك الحديث الذى دار بينه وبين الأميرال سيمور . كان أشبه بحديث الذئب والحمل ، كان الأميرال يتلمس الأسباب لضرب الإسكندرية ، وراح يهدد بضربها انتقاما لخادمه اكت الذى قتل فى المذبحة .

وطفق الخديو يجتمع بالإنجليز ، وأسر إلى كولفن أنه غير واثق من استمرار الأمن والراحة ، وأنه يرى ضرورة مجيء جنود إنجليزية لإعادة الراحة والطمأنينة ، ولم يكتف بذلك بل أرسل عمر لطفى إلى الأميرال سيمور يقول له :

— إننى غير مسئول عن النظام ، وأن عرابى عاجز أيضا عن المحافظة عليه ، وإنى أتوسل إليك أن ترسل فرقا من عندك لتحافظ على أرواح الأجانب .

ولم يرحب سيمور بهذا الطلب ، فقد كان أسطوله يتأهب للغدر .

وذاعت هذه الأنباء بين الجماهير فاشتد جزع الناس ، وزاد فى قلقهم أن قناصل الدول نبهوا على الرعايا بالهجرة من الإسكندرية ، وطلبوا منهم أن يكتبوا ما عندهم فى دفتر ، وأن يزيدوا عليه ليربحوا ما يشاءون إذا ضرب الأسطول الإسكندرية .

وباتت الإسكندرية على فوهة بركان !.

٣٩

بات الغدر مرتقبا ، فالأميرال سيمور يدعى أن الجهادية المصرية تهدد الأساطيل الإنجليزية بتحصين القلاع وإقامة الحصون ، وراح يتوعد بدك الإسكندرية دكا إن لم تكف الجهادية عن تقوية الاستحكامات .

وراح عرابى يفند هذه المفتريات :

ـــ إن مصر لم تعتد على الإنجليز و لم تهدد أساطيلها الحربية ، بل هى التى تهددنا بمراكبها الحربيــة ، وكل مــا فى الأمــر أن الجارى فى الاستحكامات إنما هو ترميم المختل منها حسب العادة السنوية وإذا كانت الدونمة الإنجليزية متخوفة من استحكاماتنا ، و لم ترد شرا بنا ، فلتقلع عن ميناثنا وتعود إلى بلادها بسلام .

كان الأسطول البريطانى يريد بمصر شرا فلم يغادر المياه المصرية ، وغض سمعه عن منطق الحق ، وراح الإنجليز يتحـرشون بـالمصريين يتلمسون سببا يبررون به غدرهم .

وأخذ عرابى يشحن القلاع والطوابى بالمقاتلين البواسل ، فتدفقت الجنود على الحصون ، وقامت الاستعدادات على قدم وساق لرد الاعتداء والذود عن البلاد .

ودخل حامد طابية صالح مع الداخلين ، وراح يتلفت حولـه فى ذهول ، رأى مدافع ملقاة فى الحصون بعضها إلى جوار بعض ، ومدافع

قد صوبت إلى البحر يعلوها التراب كأنما لم تمس من سنين ، ودبت الحياة فى القلعة ، وصدرت الأوامر متتابعة متلاحقة ، وراح الجند يغدون ويروحون فى قوة وعزم ، فأحس نفسه تتضاءل وان شعر بالدماء الحارة تتدفق فى عروقه ، وبإحساسات فوارة تمور بين جوانحه .

وتقدم وأطل على البحر وراح يدير عينيه حوله ، فرأى فى الجهة الغربية حصن مريوط شامخا ضخما يشرف على الميناء وقد قام خلفه حصن المكس وقد استقر على مرتفع من الأرض يتحكم فى مدخل الميناء ، وقد امتدت بين حصن مريوط وحصن المكس استحكامات تعززها المدافع .

ومد بصره إلى الجهة الأخرى من الميناء فألفى قلعة الفنار تشرف على الميناء الداخلية وقد أطلت منها فوهات المدافع ، ورأى فى رأس التين مدفعين عظيمين يتحركان صعودا وهبوطا ، وحصن قايتباى بمبانيه الحجرية الضخمة يحرس مدخل الميناء الشرقية ، ويشترك معه فى هذه الحراسة حصن بابليون .

ورمى ببصره إلى البحر فألفى البوارج البريطانية راسيات كالأبالسة فى الميناء ، فلو أن الأوامر صدرت الساعة بإطلاق النيران من الحصون عليها لدمر ذلك الأسطول الذى تتيه به إنجلترا ، ولأطبق عليه البحر .

وراح يوسف يتجول بالقرب منه دون أن يتبادلا كلمة أو يلقى أحدهما على الآخر تحية ، فقد هرع يوسف إلى حامد يوم التحق بفرقته ليحييه ويقص عليه أنباء جده الشيخ وخالته خديجة وعمار ، ولكن حامدا أشاح بوجهه عنه وأعطاه كشحه ، فما غفر له يوما أنه تقدم لخطبة سعدية وهو يعلم أنه أحق بها منه .

وعاشا متنافرين وإن اشتركا فى الأحلام ، فطيف سعدية يؤانسهما فى

اليقظة الحالمة ويطوف بهما فى المنام .

وراح الأميرال سيمور يخرج أسطوله من الميناء إلى عرض البحر ليتأهب لضرب الإسكندرية ، فثارت الدماء حارة فى عروق الشبان وقالوا :

ـــ لماذا لا نغرق هذا الأسطول ؟.

فارتفعت أصوات الاعتراض :

ـــ إننا لا نبدأ بالعدوان .. « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » .

وخرج الأسطول البريطانى إلى عرض البحر ، وراح الأميرال سيمور يرسل انذاراته ، ثم أرسل إنذارا أخيرا يطلب فيه تسليم بعض الحصون ، فأبى المصريون ذلك الهوان ، وأخذ الطرفان يتأهبان للمعركة الرهيبة التى توشك أن تنشب بين الحق الذى أخذ على غرة والباطل الذى أحكم تدبيره وبيت غدره بليل .

وعلم قناصل الدول بعزم الأميرال على ضرب الإسكندرية فأوعزوا إلى رعاياهم بالهجرة ، وشاع الخبر بين الناس فراحوا يتسابقون إلى محطة السكة الحديدية فرارا من الفزع الأكبر .

واتفق الخديو توفيق مع الإنجليز على أن يبارح سراى رأس التين ويتوجه إلى سراى الرمل ليكون بعيدا عن نيران الأسطول . ولما كان الإنجليز قد بيتوا النية على ضرب الإسكندرية فى الغد فقد أخذ الخديو يتأهب لمغادرة رأس التين ، والتفت إليه أحد الأميرالايات الذين كانوا فى معيته وقال فى إشفاق :

ـــ ما مصير الإسكندرية لو ضربها الإنجليز ؟.

فهز الخديو كتفيه فى استخفاف ، فقال له الأميرالاى :

ــ سيحرقها السكان ، فأرجو أن تتوسط لدى الأميرال فما زال الوقت يسمح بذلك . استدع ذو الفقار وأمره أن يحافظ على المدينة فعنده من الرجال الكفاية .

فقال الخديو فى شماتة :

ــ فلتحرق المدينة جميعها ولا يبقى فيها حجر على حجر ، حرب بحرب ، كل ذلك يقع على رأس عرابى وعلى رءوس أولاد الكلب الفلاحين .

وذهب الخديو إلى الرمل ، وانسحب المحافظ واختفى موظفو المحافظة ، وباتت الإسكندرية تنتظر مصيرها .

٤٠

أشرقت شمس يوم الثلاثاء الحادى عشر من شهر يوليو من عام ١٨٨٢ والأسطول البريطانى يتأهب لغدره ، وما وافت الساعة السابعة حتى أطلقت المدرعة « ألكسندرا » أول قذائفها على استحكامات الإسكندرية ، وتلتها المدرعات الأخرى تقذف حممها على الحصون والقلاع وقصر رأس التين والمدينة التى هب سكانها مفزوعين وانطلقوا مرعوبين ذاهلين كالأعاصير ، أو كماء انهار سده راح يتدفق فى قوة وجنون .

وأطلق الأسطول عشرين قذيفة والقلاع المصرية صامتة وإن كانت الثورة تمور فى الصدور ، والدماء الحارة تجرى فى العروق ، فقد صدرت

الأوامر إلى القوات المصرية أن تتريث لتسجل على البريطانيين الاعتداء . كان المصريون يتعلقون بالأوهام ، حسبوا أن العالم الحر سيثور على الظلم والعدوان ، وما دار بخلدهم أن الضمير العالمى قد مات !.

وأطلقت النيران حامية من الحصون والقلاع فأصبح دوى المدافع يصم الآذان ، وتطايرت القذائف ، كانت قذائف الأسطول تصيب الحصون فتتطاير الحجارة تشج الرجال وتدمى الأبطال ، بينما كانت قذائف القلاع تطيش فى الهواء فما كان للمدافع المصرية مساطر لقياس المسافات وإحكام إصابة الأهداف .

وارتفعت الشمس وأرسلت أشعتها حامية تشوى الوجوه ، وأثير النقع وسد الغبار الأفق وأظلم الجو ، وآلاف الرجال والنساء والأطفال يهيمون على وجوههم والفزع ملء نفوسهم ، فبدوا على شواطىء المحمودية كخطوط سوداء عريضة تارة ، دقيقة تارة أخرى . كانوا يتحركون فى كل جهة يسوقون أمامهم بعض دوابهم ، ويحملون على ظهورهم ما خف حمله من أمتعتهم ، ويضمون إلى صدورهم فلذات أكبادهم ، ونال الجهد من بعضهم فتخلفوا يلتقطون أنفاسهم ، واشتدت وطأة الحر عليهم فذهبوا إلى العربات المقلوبة يتفيئون ظلالها .

وراح بعض النسوة يبحثن عن أولادهن ملهوفات ، وارتفعت الأصوات وتبادلت النسوة السباب ، ثم أخذن يتشاجرن وطفقن يتضاربن ، والعربات التى تجرها الخيل تنساب كالريح لا تلوى على شىء ، فتثير الغبار وتطلق من الأفواه اللعنات ..

واستمرت القذائف تتوهج وتزأر فبدا البحر كقطعة من النار . وطفق

المصريون يغدون ويروحون فى الطوابى والقلاع ينقلون الذخائر إلى المدافع تحت وهج الشمس المحرقة التى كانت تلفح الوجوه ، وتفصد العرق غزيرا من الأجسام ، وخف بعض الأهالى إلى الجنود يعاونونهم ، وهرع بعض النسوة يضمدن جراح المدافعين البواسل ، وصاح صائح :

— دافعوا عن شرفكم ، دافعوا عن أعراضكم .

فأحس حامد ثورة عاتية تتفجر فى أغواره ، وتدفقت دماؤه حارة فى عروقه ، فقد احتلت أقطار رأسه صورة سعدية وهى تهيب به أن يدافع عنها ، وأن يحميها من هؤلاء الأوغاد الذين جاءوا يقاتلون الآمنين ليجللوهم بالذل والعار .

وجعل حامد يحمل القنابل إلى المدافع وقد امتلأ حماسة ، وقد ذهل عن كل شىء حوله فما عاد يلتفت إلى أحجار الحصن التى كانت تنقض فوقهم وتثخنهم بالجراح ، وطارت قِطعة من الحجارة وأصابت ذراع يوسف فندت منه صرخة ، فالتفت حامد إليه فلما رآه يئن ويتوجع نسى كل ما كان بينهما ، وهرع إليه يخلع عنه قميصه ويضمد له جرحه ويقول له :

— لا بأس عليك ، تشجع .

فكتم يوسف آلامه وابتسم له ابتسامة اغتصبها اغتصابا ، ثم نهض يحمل القذائف إلى المدفع بذراعه السليمة .

وجلجل صوت فى الحصن :

— هذا يوم له ما بعده ، ذودوا عن نسائكم .

فجعل الرجال يذرعون الطوابى والقلاع كالشياطين ، ولكن قذائف الأسطول كانت تدك الحصون دكا ، وخفقت أصوات قذائف المعاقل المصرية

وارتفع الأنين ، فقد خلصت الجراح إلى الأبطال المدافعين ، وراحت دماؤهم الزكية تروى أرض الحصون ..

وأصابت شظية صدر حامد فانبثق دمه وسال ، ولكن حامد ظل يذرع الحصن جيئة وذهوبا يحمل القذائف لا يحفل بما أصابه ، حتى إذا ما جاءت قذيفة وأطاحت بساقه انهار كما ينهار الجدار .

وسكتت جميع الطوابى المصرية ، إلا طابية صالح فقد راحت تقاوم فى عناد ، فصوبت قذائف الأسطول إليها لتدكها على من فيها .

ودمرت مدافع القلعة كلها وبقى مدفع واحد ، واستمر وحده يقاوم أسطول الدولة الطاغية الباغية !

وقتل الواقف خلف المدفع فخف آخر ليحل مكانه ، وأصيب فأسرع آخر ليسدد الطلقات إلى الأعداء ، وكان كلما سقط رجل هرع آخر ليصوب قذائفه إلى الأوغاد ..

وغطيت أرض القلعة بجثث المدافعين عن ديارهم ، والدماء الطاهرة تروى الأرض الطيبة ، وبقى جندى واحد سليما ، فعز عليه أن تسكت القلعة وفيه نفس يتردد . فراح يعدو إلى حيث كانت القذائف يحمل قنبلة ثم يعود بها إلى المدفع يطلقها على الأعداء ، ثم يعدو كمارد جبار إلى مكان القذائف ليتناول قنبلة أخرى يطلقها فى وجه قراصنة البحر الذين جاءوا يتلمسون أوهى الأسباب ليسلبوا البلاد حريتها وأمنها ..

ورآه حامد وهو يعدو مبهور الأنفاس فعزم على أن يعاونه فراح يزحف ودمه ينزف من صدره ومن ساقه المبتورة فيرسم خطين على الأرض ، واستمر فى زحفه حتى بلغ مكان القذائف ، فأخذ قنبلة ورفعها بيده وقد استلقى على

ظهره ، فلما جاء المدافع الباسل تناولها منه وقد تهللت أساريره وأشرق وجهه العابس الذى امتزج فيه العرق بالدم بالتراب .

ولمح يوسف ما يفعله حامد فزحف على بطنه حتى بلغ مكانه ، فتمدد على الأرض بعده وقد وضع قدميه عند كتفى حامد ، فأخذ حامد قنبلة ، ومد يده إلى يوسف فتناولها بيده السليمة ، فلما لمح الجندى الباسل يهرول نحو القذائف رفع يده بالقنبلة ودفع بها إليه ، وأراد أن يشجعه ولكنه لك يقو على الكلام ، فاكتفى بأن منحه بسمة ومضت فى الوجه الأغبر كالبرق فى ليلة ظلماء .

ورأى الجنود المثخنون بالجراح ما يفعله حامد ويوسف ، فزحفوا إليهما من كل صوب والدماء تسيل منهم على الأرض ، كلما جاء رجل تمدد بحيث تكون قدماه عند كتفى من سبقه حتى كونوا سلسلة بشرية بين مكان القذائف والمدفع .

وأخذ حامد قذيفة ومد يده بها إلى يوسف ، فتناولها يوسف بيده السليمة ودفع بها إلى الجندى الممدد على الأرض خلفه فمررها هذا إلى من بعده بقدمه فقد أطاحت القذائف بذراعيه ، واستمرت القذيفة تنتقل بين السلسلة البشرية الممتدة بين مكان الذخائر والمدفع ، كل ينقلها بعضوه السليم ، حتى وصلت إلى ذلك الصنديد الذى أبى أن يستسلم وبين جنبيه نفس يتردد ، فأطلقها وهو يصيح فى ثورة وغضب : لن تمروا إلا على أجداثنا أيها الأوغاد !.

وراحت القذائف تمرر على الأرض ، يدفعها هذا بذراعه اليمنى وذلك بذراعه اليسرى وثالث بقدمه ، حتى تصل إلى الجندى السليم وهو فى مكانه ، فيطلقها مدوية مزمجرة ، واستمرت الأيدى والأرجل تتبادل القذائف ،

فدبت الحياة فى قلعة الأبطال ، وأفعمت الصدور بالحماسة ، فاستغرقوا فيما كانوا فيه حتى نسوا آلامهم والدماء التى راحت تنزف منهم .

وصوبت مدافع الأسطول إلى طابية صالح ، تلك القلعة التى أبت أن تستسلم ما دام فيها جندى واحد قائما على قدميه ، فتطايرت شظايا القذائف وشظايا الحجارة المنهارة ، وعبق الجو برائحة البارود ، فأمست القلعة كقطعة من الجحيم .

وأصيب الجندى الباسل الذى كان يقاوم الأسطول وحده مقاومة الجبابرة ، أصيب إصابة مباشرة فتناثر أشلاء فى القلعة التى أبى أن يسلمها وفيه عرق ينبض ، فانقبضت صدور الجنود الذين تمددوا على الأرض كالسلسلة ولاح فى وجوههم الأسى والقهر ، وطفقت أفئدتهم تنزف المرارة والحقد .

وسكت آخر صوت كانت تطلقه المعاقل المصرية ، ولكن الأسطول الغادر ظل يقذف بحممه فى جنون ، حتى إذا ما اطمأن إلى صمت القلعة العنيدة صوب مدافعه إلى المسجد القائم فى طابية قايتباى و لم يهدأ حتى هدمه !.

وأحس حامد وهنا يدب فى أوصاله ، فنادى فى صوت ضعيف :

— يوسف .. يوسف .

فزحف يوسف إليه ، حتى إذا حاذاه رنا إلى وجهه فألفاه ذابلا يلتقط أنفاسه فى جهد ، والدم ينزف من صدره ، فمد يده السليمة ووضع كفه على الجرح ، فلم يلتفت حامد إلى ما فعل وقال فى صوت واه :

— إذهب إليهم ، أصبحوا فى حاجة إلى رجل يرعاهم .. قل لجدى إننى مت وأنا قرير العين .. وبلغ سعدية سلامى .

وأسبل حامد عينيه فى وهن ، ثم فتحهما فى جهد وهمس :

ـــ اذهب .. ماذا تنتظر ؟.

وصمت حامد وطال صمته ، فهتف يوسف فى لوعة :

ـــ حامد .. حامد ..

وظل حامد صامتا فقد أطبق شفتيه إلى الأبد ، واستمر يوسف يرنو إليه باسر الوجه ، يصر على أنيابه فى حنق ، ثم راح يزحف حتى إذا ما غادر القلعة ، كان الظلام قد ران على الكون وبلع كل شيء فى جوفه ..

٤١

قرأ الشيخ إبراهيم المنشورات التى راح يوزعها سلطان باشا وعمر لطفى باشا فى طول البلاد وعرضها ، فاربد وجهه وامتلأ حنقا . قد كانت منشورات خبيثة تحض الناس على الانفضاض من حول عرابى والخنوع للمحتلين الغزاة .. وزاد فى حنقه أن تلك المنشورات تسربلت بالتقوى والورع ، وشهرت سلاح الدين فى وجه عرابى . فتيقن أنها ستفعل فى عقول السذج من الناس الأفاعيل ، فقد جاء فيها أن عرابى ثائر على السلطان وأنه خارج على ولى الأمر ، فهو مارق من حظيرة الدين ، فمن يؤيده فإنما يؤيد عاصيا ، ولن يكون حظه إلا مثل حظه ، المروق من الإيمان والخروج على الدين .

يا للأكاذيب ، شوه وجه الحق ، أصبح الدفاع عن البلاد كفرا ومروقا ، أما الخيانة والخنوع والاستسلام للمحتلين فهى الإيمان

العميق !!

آه لو كان هؤلاء السذج من الناس يعرفون دينهم الصحيح ، إذن لخلعوا الخديو ، ولشقوا عصا الطاعة ، وثاروا فى وجه السلطان الذى قبل تحت ضغط الدول الأوروبية أن يسلح الإنجليز بحجة تجعل احتلالهم فى نظر البسطاء أمرا مشروعا موقوتا بعودة السلطة للخديو ، ولهبوا عن بكرة أبيهم يقاتلون فى سبيل وطنهم ، فقد صار الجهاد فريضة على كل منهم حتى يموت شهيدا أو يجلى المعتدين عن أرض الآباء والجدود .

وأطرق يفكر مهموما فى هؤلاء الخونة الذين يسروا للإنجليز احتلال البلاد ، لماذا انضم الخديو توفيق وسلطان باشا وعمر لطفى باشا ومن لف لفهم إلى الغزاة طائعين و لماذا اشتروا الضلالة بالهدى ، لماذا قبلوا الذل والهوان ؟!

إن الخديو يمقت عرابى ويغار منه ، فما أن نشبت الحرب بين المصريين والبريطانيين حتى تظاهر بالوطنية وأيد الوطنيين ، فإذا ما ثبتت الحصون والقلاع و لم تهزم أمام الأسطول ، احتمى بالرأى العام ، أما وقد اندكت الحصون وانهارت القلاع فقد رفع عن وجهه القناع وانضم إلى الأعداء ، إنه لم يشذ عن طبعه ، لعب دورا مزدوجا ، فلما ظهرت النتيجة ارتمى فى أحضان المنتصر دون أن يفكر كثيرا فيما سيلطخه من الذل والعار ، كانت كل أمنيته أن يقضى على عرابى ، وقد واتته فرصته !

وسلطان باشا رئيس مجلس النواب ، ومن يسمى بين كبار الملاك « ملك الوجه القبلى » ، لماذا انضم للأعداء ؟ إنها ثروته ، إنها كبرياؤه ، إنه جاهه ، إنه غروره ، كل أولئك أورده موارد الهلاك ، كانت له الصدارة فى أى اجتماع ،

وكان ينظر إلى عرابى فى أول أيامه نظرة الرعاية التى يمنحها الكبير للصغير ، وكان يرى فيه أداة لتحقيق مآربه وتنفيذ أحلامه ، فلما رأى عرابى ليس بالمطية التى تقوده حيث يشتهى ، وأن عرابى صار وزيرا وزعيما للأمة ، حقد عليه ، وزاد فى حقده أن غض الطرف عنه ، ولم يفكر أحد فى أن يقلده الوزارة على الرغم من تعاقب الوزارات ، فوسوس له شيطانه أن المصريين لم يفوه حقه من الاحترام ، فانضم إلى الإنجليز لعله ينال ما تهفو إليه نفسه من توقير وجاه !

وعمر لطفى، ذلك الرجل الجركسى الطماع ، لا يهمه من الأمر إلا مجد نفسه . إنه على استعداد أن يحالف الشيطان إذا كانت هذه المحالفة تقوده إلى كرسى الوزارة ، أقام مذبحة فى الإسكندرية ليقضى على عرابى وليصبح وزيرا للحربية بعده ، وقد حقق حلمه شهورا ، وإنه يعاون الإنجليز اليوم ليدوم له المجد والسلطان .

وهؤلاء الضباط الذين خانوا الأمانة ، لماذا انضموا إلى أعداء البلاد ؟ لماذا قبل بعضهم أن يخذل الجيش عن قائده ، وأن يضع بعضهم المصابيح فى جوف الليل ليسير على هديها الغزاة ؟ أخرس ضمائرهم الذهب الوهاج ، ولكن هل أرضى الإنجليز طمعهم وأشبعوا نهمهم إلى المال ؟ خدعوهم وأعطوهم نقودا من رصاص سكوها للخونة الطامعين فى الثراء . إنها سلسلة قذرة من الغش والخداع .

يا للنفوس الوضيعة والضمائر الخسيسة ، قبل الخونة عار الدنيا وخزى الآخرة ليطفئوا أحقادهم ، ليقضوا على الغيرة التى تنهش صدورهم ، ليكدسوا المال الحرام فى خزائنهم ضاعت البلاد فى سبيل إشباع بعض الشهوات .

ومرت خديجة بأبيها فألفته مطرقا مقطب الجبين ، فانقبضت ورفرف قلبها بين ضلوعها رهبة ، وقالت فى فزع :

— أبلغك أخبار عن عمار ؟

فقال فى صوت خافت :

— لا ..

— ولماذا أنت مطرق ؟

ماذا يقول لها ؟ أيقول لها أن الإنجليز أوهموا العالم أن فى مصر فتنة وأنهم ما تدخلوا إلا لحماية أرواح الأوروبيين وأملاكهم ، وأنهم قد أغروا توفيقا وأوهموه أنهم لا يبغون إلا حمايته من رعاياه الثائرين ليجبروه على قبول الحماية البريطانية ؟!

أيقول لها إنهم فعلوا بمصر ما فعله الفرنسيون بتونس وأن الاستعمار ينشر ظله البغيض على البلاد الإسلامية ؟ وإذا قال لها ذلك أتفقه قوله ؟ إن كل ما تعرفه من الأمر أن عمارا قد ذهب وأنها تنتظر عودته ، فآثر أن يلوذ بالصمت وأن يمضغ أشجانه وحده .

وتصرم الوقت وهو مطرق غارق فى أحزانه ، وإذا بأصوات فرح وابتهاج تصك أذنيه ، فرفع رأسه فألفى خديجة ترحب بعمار وقد طفرت دموع الفرح من مآقيها ، كانت أشبه بطفلة عاد أبوها بعد طول غياب .

وقام الشيخ وانطلق إليه يصافحه ، وقال له فى صوت حزين :

— ماذا وراءك ؟

فقال عمار فى مرارة :

— إنها الهزيمة ، تفرق الجند وفر كل إلى بلده .

— وعرابى ماذا فعل ؟.

— ذهب إلى القاهرة .

— ولماذا لم تذهبوا معه ؟

فصمت عمار و لم يحر جوابا ، فقال الشيخ ودموعه تخضب لحيته :

— ليتنى كنت شابا ، فتحت الجنة أبوابها فأعرضتم عنها .

فقال عمار فى انفعال :

— ماذا كنا نستطيع أن نفعل ؟ حاربنا كما ينبغى أن نحارب ، دافعنا عن شرفنا ، و لم يهزمنا الجنود ولكن هزمتنا الخيانات ، خيانات البدو وخيانات الخديو والباشوات ، هل كنت تتصور أن موسيقى الخديو تصدح بأنغام الظفر لما يبلغ الخديو نبأ استيلاء الإنجليز على التل الكبير ؟!

وساد صمت حزين ، فمدت خديجة يدها وجذبت عمار ، وانطلقا وقد خلفا الشيخ للأحزان والهموم .

واستمر الشيخ فى إطراقه حتى مالت الشمس للغروب ، وسمع وقع أقدام تقترب منه فرفع رأسه ، فإذا بيوسف أمامه يمد له يده ، فصافحه وقد رف قلبه بين جنبيه ، تذكر حامدا ، وقام فى نفسه سؤال : ترى أفر كما فر الآخرون ؟ وقال فى لهفة :

— أرأيت حامدا ؟

فهز يوسف رأسه فى أسى وقال فى صوت متهدج :

— طلب منى أن أقول لك إنه مات قرير العين .

فلاح فى وجه الشيخ الحزن العميق ، وراح يغالب حزنه ، ولكن ترقرقت فى عينيه الدموع فمسحها بظهر يده .

ولمح الشيخ سعدية قادمة نحوهما فاربد وجهه وانقبض صدره ، وفطن يوسف إلى تبدله ، فتلفت ، فلما وقعت عيناه على سعدية تفجرت فى جوفه إحساسات متباينة ، ورق لها وأشفق عليها وحن إليها ، ولو طاوع نفسه لهرع إليها يضمها إلى صدره لتمتزج دموعه بدموعها ، وليحمل عنها بعض ما سينزل بقلبها من الحزن الثقيل .

ونظرت إليهما فحزر قلبها كل شيء ، أحس أن حامدا ذهب ولن يعود ، فانقبضت وأحست نارا تسرى فى أحشائها ، و لم تحتمل العذاب الذى استشرى فى جوفها فقالت فى فزع :

— أين حامد ؟ لماذا لم يعد ؟.

فقال لها يوسف وقد أطرق :

— طلب منى أن أبلغك سلامه .

فقالت فى لهفة :

— أين هو ؟

فدنا جدها منها وضمها إليه فى حنان ، وغمغم فى أسى :

— تشجعى ياسعدية .

وكأنما لم تفهم فصاحت فى فزع :

— ماذا جرى له ؟.

فقال الشيخ فى صوت حزين وإن حاول أن يبدو هادئا :

— استشهد .

ولم تصرخ سعدية ولم تمزق شعرها ، وانطلقت شاردة اللب حتى إذا بلغت شجرة التوت ارتمت على الأرض ترويها بدموعها ، ووقف يوسف على البعد يرنو إليها وفى الحلق غصة وفى الجوف نار تتلظى :

مؤلفات الأستاذ عبد الحميد جودة السحار

- أحمس بطل الاستقلال
- أبو ذر الغفارى — ترجم إلى الإندونيسية
- بلال مؤذن الرسول
- فى الوظيفة — (مجموعة أقاصيص)
- سعد بن أبى وقاص
- همزات الشياطين — (مجموعة أقاصيص)
- أبناء أبى بكر الصديق
- فى قافلة الزمان — (رواية)
- أميرة قرطبة — (قصة)
- النقاب الأزرق — (قصة)
- المسيح عيسى بن مريم
- أهل بيت النبى
- محمد رسول الله

تأليف : مولاى محمد على

ترجمة بالاشتراك مع مصطفى فهمى

- قصص من الكتب المقدسة (مجموعة أقاصيص)
- صدى السنين — (مجموعة أقاصيص)

ترجمت إلى الإندونيسية

- حياة الحسين

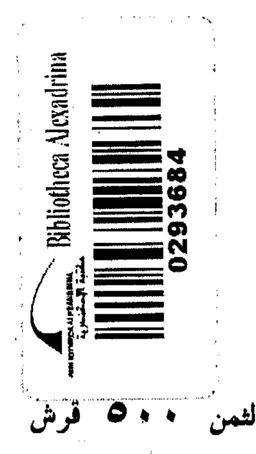
- الشارع الجديد (رواية)
- وكان مساء (قصة)
- أذرع وسيقان (قصة)
- المستنقع (قصة)
- ليلة عاصفة (مجموعة أقاصيص)
- الحصاد (رواية)
- جسر الشيطان (قصة)
- النصف الآخر (قصة)
- السهول البيض (رواية)
- أم العروسة (قصة)
- قلعة الأبطال (قصة)
- وعد الله وإسرائيل
- عمر بن عبد العزيز
- هذه حياتى
- الحفيد
- ذكريات سينمائية
- كشك الموسيقى
- خفقات قلب
- صور وذكريات
- الإسراء والمعراج
- القصة من خلال تجاربى الذاتية
- عدو البشر
- أبطال الجزيرة الخضراء
- النمر

— الله اكبر
— ثلاثة رجال فى حياتها
— مسجد الرسول
— فات الميعاد
— آدم إلى الأبد
— العرب فى أوربا
— الدستور من القرآن العظيم

رقم الإيداع ١٥٦٨
الترقيم الدولى : ٦ — ٢٣٤ — ٣١٦ — ٩٧٧



مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



الثمن ٥٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه